

الاتحاد

روبرت لويس ستيفنسن

دكتور جيكل ومستر هايد

ترجمة : جولان حاجي



مجاناً مع جريدة الإتحاد



رئيس التحرير
فرياد راوندوزي

موبايل ٠٧٩٠١٣١٠٢٣٢
هاتف ٥٤٣٨٩٥٨-٥٤٣٨٩٥٤
E-mail:Ittihadpress@yahoo.com

الكتاب للجميع

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق- ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy
لبنان -بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb
العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com



٥٢

روبرت لويس ستيفنسن

دكتور جيكل ومستر هايد

ترجمة جولان حاجي

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (الاتحاد)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٨



يحدثنا خورخي لويس بورخيس، في أحد نصوص "كتاب الكائنات الخيالية"، عن مخلوقات خرافية اسمها البنيُّون، و هم أقزام طيبون يرتدون ثيابا ضيقة بنية اللون سكناهم المزارع الاسكوتلاندية، و يقومون بالتدابير المنزلية في الليل بينما أهل البيت نائمون. يذكر روبرت لويس ستيفنسن إنه قد مرّن بنّييه على فن الأدب، يترددون على مناماته ويروون له حكايات مدهشة، منها قصة أولالا في كتابه الرجال المرحون (١٨٨٧) حيث سيدٌ نبيل يعضُّ يد أخته، و هذه الرواية الماثلة بين أيدينا: دكتور جيكل و مستر هايد(١٨٨٦).

يكتب لويد أوسبورن في يومياته(٨٥-١٨٨٦) عن زوج أمه:

يصف نحول ستيفنسن و تجواله في بيت كبير موصد في سكيريفور، بالقرب من بورنماوث، ناقهاً ممتثلاً لنصيحة الطبيب بوجوب الامتناع عن قصّ شعره و عدم الخروج إلى الحديقة لئلا يُصاب بنزلة برد؛ فقد ظل منذ مطلع شبابه، مثل كافكا و تشيخوف، معذّباً بداء السل الذي اضطره للتنقل بين بلدان و قارات مختلفة بحثاً عن مناخ يلائم تدهور صحته. كان ذاك البيت الكبير هديةً من أبيه، مهندسِ المنارات على شواطىء اسكوتلاندة الصخرية، بمناسبة زواج ابنه الوحيد من فاني أوسبورن، السيدة الأمريكية المطلقة التي تعرف إليها ستيفنسن في غابات فونتينبلو الفرنسية، و كانت تكبره بعشر سنين. في ذاك البيت ألّف مع صديقه و. إي. هنلي العديد من الأعمال المشتركة، وزاره زيارة طويلة صديقه الحميم هنري جيمس الذي قال عنه: (إن عشق الصبا هو بداية رسالة ستيفنسن و نهايتها)، مشيراً إلى جزيرة الكنز (١٨٨٣)، الكتاب الذي استهلّ شهرته في بريطانيا و الولايات المتحدة، لتعقبه سلسلة من روايات المغامرات البديعة: السهم الأسود (١٨٨٣)، المخطوف(١٨٨٦)، كاتريونا(١٨٩٣).

لم يستقر المقام به طويلاً في أي مكان. فبعد أن تخلى عن مزاولة المحاماة إثر تخرجه من جامعة إدنبرة و قبوله عضواً في تلك المهنة، قرر التفرغ نهائياً للأدب،

وانفصل عن والديه بعد شجارات متكررة آثر في نهايتها أن يخوض عيشاً بوهيمياً عوضاً عن حياته الرزينة السابقة، وقد كوّن انبهاره بقاع مدينة إدنبرة و الشخصيات الغريبة التي التقى بها هناك مادة غنية نهل منها بعضاً من قصصه اللاحقة. سافر إلى فرنسا وتجول في أرجائها، استقلَّ قارباً في نهر السين و راح يطوف على امتداده (رحلة إلى الداخل ١٨٧٨)، كما امتطى حماراً يجول به في دروب الأرياف. كتب عن مئة حصان في الإصطبلات على متن السفينة البخارية التي أقلّته أواخر آب١٨٧٧ إلى الولايات المتحدة كي يتزوج فاني التي استكملت إجراءات طلاقها قبل وصوله، و حلم بقصتين عن البحر الذي يعشقه. تجول طويلاً في القارة الجديدة، استقلَّ قطارات الدرجة الثانية حيث أفزعه المسافرون و أدهشوه بأقاصيصهم؛ أمضى شهر العسل بالقرب من منجم مهجور في كاليفورنيا، و عشق نيويورك التي رأى فيها آنذاك مزيجاً من تشلسي و ليفربول و باريس.

عاش ستيفنسن أعوامه الأخيرة في جزيرة ساموا في المحيط الهادي، حيث المناخ الدافىء يناسب صحته العليلة على الدوام، وتوافرت له العزلةُ بعيداً عن الأوساط الأدبية، محتفياً بالمباهج المتاحة في تلك الحياة القاسية للمنفيين، واصفاً نفسه براوي الأقاصيص و نسّاج الكلمات؛ مثلما وصفه تشسترتن بالحاذق، مستغرباً أن الكلمة المناسبة تنتظر دائماً على رأس قلمه، و أبدى إعجابه بالقصص اللافتة في (الليالي العربية الجديدة،أو ليالٍ جديدة من ألف ليلة وليْلة، ١٨٨٢)، واعتبرها قصصاً فريدة لا نظير لها حيث الجرائم و الأسرار الآثمة التي يقترفها وجوه المجتمع البارزون.

في إحدى رسائله من جزيرة ساموا، كتب ستيفنسن: " أعيش هنا في بحار الجنوب، تحت وطأة ظروف بالغة الجدة والقسوة، بينما مخيلتي تلازم السكنى بين التلال الرمادية و البحيرات القديمة الباردة التي جئنا منها". في هذه الجزيرة باغته الموت إثر نزيف حاد في المخ عام ١٨٩٤، متوفياً عن أربعة و أربعين عاماً. و دُفِنَ هناك في جبل فايا القريب من منزله، و على شاهدة القبر نُقِشَت قصيدته هذه:

تحت السماء الواسعة المرصعة بالنجوم
احفرْ لي قبراً، و دعني أرقدْ.

* * *

إنه شتاء ١٨٨٥ . يقف ستيفنسن عند النافذة الكبيرة، متدثراً بعبا[illegible]
شعره الأسود الطويل ينسدل حتى كتفيه، يشاهد هطول المطر في س[illegible]
اسكوتلاندا، و لا يستطيع الخروج من البيت. تساوره الضائقة المالية التي [illegible]
عواقبها طويلاً، و لم تنته إلا بعد وفاة أبيه ١٨٨٧ و الميراث الذي تركه له. بحلول
الليل، متقلباً في سريره المعتم الكبير، يكابد كي يغفو. ينام و تدخل مخلوقاته
السحرية المسرحَ الأسود لرأسه، و تتوالى الصور و التفاصيل. توقظه زوجته فاني،
وقد أفزعتها صرخاتُه الكابوسية، فينهرها: " لماذا أيقظتني!؟ كنت أرى قصة رعب
باهرة". لقد فوّتت عليه إكمال ما رآه، و كان قد بلغ النقطة التي يتحول فيها دكتور
جيكل للمرة الأولى إلى قرينه هايد. نوّه بعدئذ: "مهما كان نومي وجيزاً، سأعرف
أني أنا من يبتكرُ الحلم، و إذا صرخت تكون صرختي امتناناً لأنني أدرك عندئذ كم
القصة جيدة جديرة بالكتابة".

متلصصاً من الباب الموارب، مذهولاً، يصف لويد السرعة الخارقة التي كُتِبت
بها الرواية في غضون ثلاثة أيام فقط (نكاد لا نجد مثل هذا الاستثناء في تاريخ
الأدب إلا لدى كافكا الذي فرغ من كتابة المحاكمة في ليلة واحدة). قرأ ستيفنسن
ما كتبه لزوجته و ابنها. لم تحب فاني القصة و تجادلا طويلاً. دخل الكاتب غرفته
وأقفل الباب، ثم خرج بعد قليل مبتسماً، و على مرأى منهما رمى بالمخطوط كله
إلى نار المدفأة، ولم تتمكن فاني من إنقاذ الأوراق التي احترقت. اعتزل الكاتب في
غرفته ثلاثة أيام أخرى، مواصلاً الكتابة على سريره، يكتب في الضوء الكابي
للنهارات، و على نور الشموع في الليل. لاحقاً، انكبَّ على المسودة الثانية ينقّحها
مشذّباً الحلمَ مما أسماه بالحماقات، هو المدقّق المغالي في التنقيح الذي قد يعيد كتابة
بعض نصوصه سبع أو ثماني مرات. لقد قلب الرواية رأساً على عقب، ابتكر صياغة
أخرى مختلفة عن الأولى، خالقاً أمثولة إنسانية لا تضاهيها في الدقة والكمال
الرواياتُ العديدة التي تناولت ازدواج الشخصية؛ لقد استدرك خطأه، فقد كان دكتور
جيكل شريراً في السريرة و قرينه هايد مجرد شخصية متنكرة تظهر على خشبة
مسرحه في لندن المرسومة بعيني ديكنز. في سياق محدّد شديد الإيجاز يكتنفه مأزق
أخلاقي عميق، داخل مناخ غريب و أليف، مبهم و مثير للفضول، تتنوع طرائق
السرد بين عدد قليل من الشخصيات اللندنية، لا نصادف النساء إلا عرَضاً(أسرَّ
الكاتب لزوجته بأنه لا يجرؤ على الحديث عن أي امرأة، كما يجد صعوبة في إبقائها

شخصية ثانوية دائماً).لا نصادف أجنبياً في هذا المجتمع المحدود للغاية، لا نشاهد غرباء و لا ملونين وُلدوا في مستعمرات الإمبراطورية؛ كما يشير بعض الدارسين إلى الشبه القائم بين مستر هايد و الصورة النمطية للإيرلنديين و القوقاز الشائعة في الصحف و الأدبيات السياسية للقرن التاسع عشر، هؤلاء الذين اعتبرهم الداروينيون الاجتماعيون أقل تطوراً من الإنكليز و سائر الأوروبيين.

تحت عنوان (القضية الغريبة للدكتور جيكل و المستر هايد) ظهرت الطبعة الأولى لهذه الرواية شتاء ١٨٨٦، و اقتُبست للسينما في أفلام عديدة خلال القرن العشرين. بعث الكاتب بنسخة إلى أحد أصدقائه واعتبرها مثالاً في الأناقة،" كنزاً قوطياً استُخرج من منجم عميق." وفي رسالته التي وقّعها باسم بروميثيوس، يكتب عن حياة العاجز المتأمل:

" صحة الكاتب أو مرضه الجسدي أو العقلي، بالإضافة إلى التهكم الوجيز، لا تشكّل السمات المميزة لعمله وحسب، بل إنها، في الصميم، الشيءُ الوحيد الذي يستطيع إيصاله إلى الآخرين. (.....) منذ أربعة عشر عاماً لم أنعم يوماً بعافية حقيقية؛ أستيقظ كالمريض ثم أخلد إلى فراشي منهكاً. أكتب في السرير و رئتاي تتمزقان بالسعال. أكتب و جسدي واهن، و يستمرّ هذا العراك مريضاً كنتُ أو معافى؛ يا للسخف، و تستمرّ الكتابة. لقد خُلقتُ لأجل هذا الصراع، لكن الأقدار شاءت أن يكون ميدان معاركي هو العقل، في هذا السرير النتن الوضيع".

* *

كان ستيفنسن، المولع بويتمان و إنجيل متى، يرى تأثير الكتب عميقاً و صامتاً كتأثير الطبيعة. و قد شغلته طويلاً فكرةُ القرين أو الذات الأخرى، و عالجها مراراً في كتبه: الموضوع القديم لطبيعة الإنسان المزدوجة. ففي روايته سيدُ بالانتري (١٨٨٩) الشخصيتان الأساسيتان بالغتا التعقيد و هما جيمس و هنري(شطر اسم صديقه هنري جيمس إلى نصفين، و لاحظ إن الاسمين يحملان الحرفين الأوليين من جيكل وهايد)، لا يمكن الحكم على أي منهما أخلاقياً، ويتمازج فيهما الخير والشر امتزاجاً أخّاذاً، و في نهاية الرواية يموتان في الوقت نفسه في مكانين منفصلين. امتدح هذه الروايةَ فالتر بنيامين و أندريه جيد، واعتبرها بريخت و كالفينو ونابوكوف ذروةَ ما كتبه.

الأسلوب شاغلٌ أساسي لدى ستيفنسن، إلى جانب ولعه بموسيقى اللغة و إيقاع الكلمات، و كراهيته للعبارات الجاهزة التي ظل دائماً يتحاشاها قدر المستطاع، مثلما يتحاشى سيرته الذاتية إذ قلما نلمح أطيافها في ثنايا أعماله. يقول: " الفن يكمن في الحذف. يبقى الكاتب هاوياً إن قال في جملتين ما يمكن قولُه في جملة واحدة." هذه الحساسية وهذا الوضوح أفضيا به إلى تنوع مدهش في الأساليب، يبهرنا بحيويته ونضارته و رشاقته، بلطافته و فطنته و دقّته الآسرة(هذه محاور حاول جاهداً التقيد بها)؛ يرتب التفاصيل المنتقاة بحرص و أناة حتى يبلغ تلك الحالة التي يغدو فيها الرعب منبعاً للمتعة- الحالة التي ينعتها لديه غالب هلسا بالمخيف الممتع.

يرى بورخيس إن من حسن حظ ستيفنسن نجاتُه من حفاوة الحداثويين مطلع القرن العشرين، فقد صنفوه كاتباً مولعاً بقصص المغامرات، و استبعده ليونارد وولف تماماً من أونطولوجيا الأدب الإنكليزي. لكنه، باستثناء الرواية الفكتورية التقليدية ذات الأجزاء الثلاثة التي هيمنت بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٨٠، كتب المسرحيات والقصائد، القصص القصيرة و الروايات، النقد الأدبي و المقالات، قصص المغامرات و الرحلات، الحكايات الفانتازية و الخرافية. فبالرغم من إهمال النقاد لهذا الكاتب الزئبقي، بتعبير بورخيس، بقيت قراءته ببساطة شكلاً من أشكال السعادة.

المترجم

القضية الغريبة

للدكتور جيكل والمستر هايد

إلى كاترين دو ماتو

أيُّ شؤمٍ سيحلُّ بنا إذا فصمنا العُرى التي قضى الله بها ميثاقاً؛
لكننا ما نزال أطفالَ الريح والخلنج*؛
بمنأى عن مسقط رأسنا، آه، ما نزال نتحسّس، أنا وأنتِ،
الوزّال* يهبُّ ساحراً في بلادِ الشمال.

قصة الباب

كان مستر آترسون المحامي رجلاً متجهمَ التقاطيع لم يستضئ محياه بابتسامة قط؛ بارداً مقتّراً في حديثه حائراً؛ منكفئاً في عواطفه؛ ممشوقاً، ناحلاً، مغبراً، مستوحشاً، وبرغم كل ذلك كان محبوباً. وفي أثناء لقاءاته بالأصدقاء، وإذا انسجمَ النبيذُ وذوقَه، فإن شيئاً مسرفاً في الإنسانية يطلّ ملتمعاً في عينيه، شيئاً ما كان في الواقع ليهتدي قط إلى طريقٍ صوب كلامه، وإنما ينطق في هذه الرموز الصامتة لوجهٍ فرغَ للتو من تناول غدائه، وكثيراً ما يدوّي عالياً في وقائع حياته. كان صارماً مع نفسه؛ يحتسي الجنّ إذا اختلى بنفسه كي يُميتَ ولعه بالخمور؛ وعلى الرغم من استمتاعه بالمسرحيات فإنه لم يتخطَّ عتبة أي مسرح منذ عشرين عاماً. لكنّه كان يتحلّى بمقدرة مستحسنة على احتمال الآخرين؛ مستغرباً في بعض الأحيان، بما يشبه الحسد، روحَ الحيوية العالية التي تتجلّى في آثامهم؛ أما هو فحَريٌّ به إذا نُودي، في أي ظرف حرجٍ كان، لا أن يصدّ النداء بل أن يقدّمَ يدَ المعونة. "إني أميلُ إلى هرطقاتِ قابيل"، ألفوه يردّدُ هذه العبارةَ الغريبة،"وأدَعُ شقيقي في دربه يسيرُ إلى الشيطانَ". وبهذه الشخصية كان طالعهُ المرجّح هو أن يصيرَ آخر الأصحابَ الموقّرين وآخر المؤثرات الطيبة في حيواتِ الرجال الذين ينزلقون في حمأة الحياة. ولمثل هؤلاء، الذين طالما تردّدوا على حجراتِ منزله، لم يطرأ قط على مسلكه تجاههم طيفُ تحوّل يُذكَر.

مما لا ريب فيه أن المآثر كانت هينة على مستر آترسون؛ فهو من خيرة الذين

يفلحون في كتمان عواطفهم، وحتى صداقاته تبدو وكأنه أرسى دعائمها بطريقة كاثوليكية مماثلة من حُسن السريرة. فالعلامة الفارقة لرجلٍ متواضع في سلوكه هي أن يتقبّلَ حلقة أصدقائه التي تهيئها له أيدي المصادفات؛ وكان ذاك هو مسلك المحامي. فأصدقاؤه هم مّمن تربطه بهم أواصرُ الدم؛ أو هُمْ ممن عرفهم وقتاً طويلاً؛ وميولهُ كاللبلاب ينمّيها الزمن، ولا تستوجبُ أيةَ مزايا في انتقاء موضوعها. ومن هنا، بلا ريب، الوشيجةُ التي شدّته إلى مستر ريتشارد إنفيلد، قريبه البعيد، الرجل ذي الصيت الحسن في أرجاء المدينة. وقد كانت هذه الصداقة، في منظور الكثيرين، سراً مكنوناً؛ فما استطاعه كلٌّ منهما أن يستشفَّه في الآخر، تساءلوا، وإلى أي المواضيع المشتركة استطاعا أن يهتديا. وقد أفضى أولئك الذين صادفوهما أثناء نزهات يوم الأحد، بأنهما لا يقولان شيئاً، كلٌّ يبدو وحيداً وساهماً، وارتياحٌ عميم يغمره عند ظهور أحد الأصدقاء. ولجميع تلك الأسباب، كان الرجلان يعوّلان كثيراً على هذه النزهات، ويحسبانها الجوهرةَ النفيسة التي يزدانُ بها الأسبوع، ولئلا تُقطع عليهما هذه النزهات كانا على استعداد لا لتنحيةِ المناسباتِ والاحتفالات فحسب، بل للامتناعِ عن تلبيةِ نداءات العمل أيضاً.

وفي واحدة من هذه التسكعات شاءت المصادفة أن تقودهما الطريق إلى شارعٍ فرعيٍّ في حيٍّ من أحياء لندن المزدحمة؛ وهو شارع صغير وهادئ - إن جاز التعبير، نظراً لاصطخابه طوال أيام الأسبوع الأخرى بحركة التجارة المؤارة. وكانت أحوال قاطنيه جميعاً، كما يبدو، على خير ما يُرام، ويحدو الجميع أملٌ يتوقُ بالتنافس إلى المزيد من الرفاهية، ويتباهون بالإفصاح عما يربو من مرابحهم؛ فتبدو واجهاتُ المتاجر تترامى ملتزّة في ذاك الشارع العام متّشحةً بجوٍّ ملؤهُ الترحاب، وكأنها صفوفٌ من البائعات المتبسّمات. وحتى في يوم الأحد، حين يُسدل النقابُ على أبهى مفاتنه زخرفاً ويمكثُ، خلافاً للأيام الأخرى، خالياً من المارة، فإن الشارعَ يتلألأ على نحوٍ يفارقُ به الجوارَ الكابي، كمثل نارٍ شبّت في غابة؛ ومن خلال مصاريعه المطلية ألواناً زاهية، وقضبانِ نحاسه المصقولة جيداً، ونظافته العامة وبهجة المشهد كلّه فإنه يسترعي، وعلى الفور، عينَ العابر فيغتبطُ بما يرى.

على مسافة بابين اثنين من إحدى الناصيتين، وعلى يسار السائر نحو الشرق، كان شريط المنازل يعترضه مدخل أحد الأفنية؛ وعند تلك البقعة تحديداً ثمة بناء يشوب هيكله نوعٌ من الشؤم يشرئبّ بسقفهِ الهرميّ إلى الشارع. علوُّه طابقان، ولا

تلوحُ فيه أية نافذة؛ ما منْ شيء خلا باب في الطابق السفلي، وفي الطابق العلوي الواجهةُ المصمتة لجدار لم يُصبَغْ؛ وتسمه في كلّ تفصيلٍ من تفاصيله أماراتُ إهمالٍ مديد يبعثُ على الكآبة. وهذا البابُ الذي ليس من جرسٍ أو درَقة ليُقْرع به، متقفّعُ الطلاء. يضطجعُ المتسكّعون في هذا المنعزَل يشعلون عيدانَ الثقاب بألواحه؛ ويتمادى الأولادُ بألعابهم على درَجه؛ ويجرّبُ التلاميذ مبراتهم في أخاديد أخشابه؛ ومنذ ما يناهزُ جيلاً كاملاً، ما أبَدى أحدٌ استعداده كي يطردَ عن هذا المنزل أولاء الزوارَ الثقلاء أو يستصلحَ ما أتلفوه.

كان مستر إنفيلد والمحامي يسيران في الجانب المقابل من ذاك الشارع الفرعي؛ فلما اقتربا من المدخل رفع الأول عصاه مومئاً، وتساءل:

"هل لاحظت ذاك الباب من قبل؟"، وعندما رد صاحبه بالإيجاب، أردف " إنه مقترن في ذهني بقصة غريبة للغاية".

"حقاً!" قال مستر آترسون و قد تغيّرت نبرتُه قليلاً، "وما هي تلك القصة؟".

"حسناً، عبر هذا الطريق"، بادره مستر إنفيلد، "كنت عائداً أدراجي إلى منزلي، قادماً من مكان يقع في أقاصي العالم، وكانت الساعة حوالي الثالثة من ذاك الصباح الشتوي الدامس، وطريقي تمتد عبر قسم من المدينة حيث لا تصادف العينان شيئاً، بالمعنى الحرفي، ما عدا المصابيح. شارعاً فشارعاً، والناسُ نيامٌ كلهم - شارعاً تلو شارع، استضاءت كلها كأنها تُوقَدُ استعداداً لموكب ما، وكلّها كالكنيسة يخلو من السابلة- حتى وصل بي الأمر في النهاية إلى تلك الحالة الذهنية التي يرهف فيها المرء أذنيه و يتنصّت، ويبدأ التوقُ يستبدُّ به لعله يرى رجلاً من رجال الشرطة. وعلى حين غرة، تراءت لي هيئتان: كانت إحداهما رجلاً ضئيلاً يسرع الخطو صوب الشرق في نزهة مؤنسة، أما الأخرى فكانت فتاةً ربما لها من العمر ثمان سنوات أو عشر، تعدو حثيثاً، متحدّرة عبر تقاطع الشارع. وبالطبع، يا سيدي، اصطدم الاثنان أحدهما بالآخر عند الناصية كما يحصل عادة؛ ولحظتئذ جاء الفصل المروّع من المسألة؛ لأن الرجل بأعصاب باردة داس بقدميه جسد الطفلة وتركها وراءه طريحةَ الأرض تولول. وليس ما بلغ مسامعي شيئاً يُذكر إن قُورنَ بفظاعة ما رأت عيناي. فما كان الرجل شبيهاً بإنسان، وإنما شبيه بالأحرى بمارد ملعون*. وندَّ عني هتاف مدوٍّ، فأطلقتُ ساقيّ للريح وأمسكت بخناق سيدي النبيل، وجررته عائداً إلى حيث تجمهر للتو من حول الطفلة المستصرخة رهط من المارة لا يُستهان بعددهم. كان بروده

تاماً، ولم تبدرْ عنه أية مقاومة، غير أنه حدّجني بنظرة واحدة، ويا لدمامتها ـ فقد فصّدت العرقَ وأسالته فوق بدني. كان الناس الذين ظهروا للعيان هم ذوو الفتاة نفسها؛ وسرعان ما علت سيماء الحيرة وجهَ الطبيب الذي بعثوا بها إليه. حسناً، فالضرر الذي أحاق بالطفلة لم يكن جسيماً، لكنها كانت مذعورة، بناء على أقوال الطبيب؛ ولربما خامرك الظن بأن القصة ستنتهي عند هذا الحد. غير أنني لاحظت تفصيلاً يستدرّ الفضول. فقد انتابني من النظرة الأولى الاشمئزازُ من سيدي الجنتلمان، مثلما انتاب أسرة الطفلة، وكان هذا الإحساس طبيعياً تماماً. لكن أشدّ ما شُدهت به كان حالة الطبيب. فقد كانت له السحنة العادية للصيدلاني النظيف والمرتب الهندام، لا يسمهُ أيُّ عمرٍ أو لون محددين، بلسانه لكنةُ إدنبرة الصريحة الشبيهةُ في عاطفيةٍ رنّتها بمزمار القربة. حسناً، يا سيدي، كان شبيهاً بنا، وكلما تطلع إلى رهينتي رأيت سحنة الطبيب تمتقع و يعروها الشحوب فتخالجه الرغبة في قتل هذا الرجل. كنت أدرك ما يجول في خَلَده، مثلما أدرك هو ما ساورني؛ وإذْ استُبْعدت نية القتل من حلقة السؤال فقد قمنا على خير وجه بالخطوة التالية.فأعلمنا الرجل إن بمستطاعنا، وفي نيتنا، الاقتصاصُ بتشهيرِ هذا الحادث إلى فضيحةٍ مجلجلة، كما سنلطخ سمعته من قاصي لندن إلى دانيها. وإن كان له أي أصدقاء أو أية سمعة فقد توعّدناه بأنه سيخسرهم جميعاً. وطوال الوقت، ونحن متسمرون نمتاز غيظاً، كنا ندرأ عنه النسوة باذلين قصارى استطاعتنا، فقد كُنَّ ضارياتٍ كالهاربيات*. ما رأيتُ قطّ من قبل أناساً تحلّقوا و لهم مثل تلك الوجوه البغيضة؛ كما كان ثمة الرجل الذي توسّطهم، وقد اعتراه ضرب من البرودة السوداء المتهكّمة ـ وكان بوسعي أن أراه هو مذعوراً أيضاً ـ لكنه، يا سيدي، أخفاها عنا وكأنه الشيطان بعينه. "إذا ما رغبتم في تضخيم هذه الحادثة"، قال،" فإنني عديم الحيلة، وهذه سجيّتي؛ إذْ ما من جنتلمان ليرغب سوى في تفادي مثل هذه الفضيحة. عينوا فديتكم". حسناً، فقد غرّمناه بمائة جنيه سيسددها تعويضاً لأسرة البنت؛ وانجلت لنا رغبته في التملص؛ لكن شيئاً ما خالجنا جميعاً أخطره بفحوى هذه العاقبة، فأذعنَ لنا أخيراً. كان الأمر التالي هو الحصول على النقود؛ وإلى أين تظنه اقتادنا خلا المكان ذاك ذا الباب؟ استلّ مفتاحاً، دلف داخلاً، وما لبث أن جاءنا بحوالي عشرة جنيهات ذهبية، وكتب باقي المبلغ في صكٍّ سيُصرف لحامله في مصرف كوتس، وعليه إمضاء لا أستطيع أن أذكر اسم صاحبه، مع إنه ركيزة من ركائز قصتي، لكنه

ـ وهذا أقل ما يُقال ـ كان اسماً ذائعَ الصيت وكثيراً ما نصادفه مطبوعاً في الصحف.كان المبلغ كبيراً؛ أما الإمضاءُ فكان أسخى مما توقّعتُ، إذا كان السخاءُ صفته الوحيدة. وأخذت أبيّنُ للجنتلمان أن القضية برمتها تبدو ملفّقة؛ فالرجلُ منا، في الحياة العادية، لن يدلفَ من بابِ حجرةٍ في الساعة الرابعة صباحاً ليرجعَ منها بصكٍّ من رجل آخر تناهزُ قيمته المئة جنيهاً. لكنه ظل مرتاح البال مبتسماً باستخفاف، وهو يقول: "هدّىء من روعك، سأبقى معكم ريثما تفتحُ المصارفُ أبوابها وسأنقدك الصكَّ بنفسي".وهكذا انطلقنا جميعاً، أنا والطبيب ووالد الفتاة وصديقنا هذا، وأمضينا في منزلي هزيعَ الليل الأخير؛ وفي اليوم التالي، بعد تناول الفطور، اتجهنا معاً إلى المصرف، فقدمت الصك بيدي، وقلت إنني أتوافرُ على كلّ الأسباب كي أعتقد بأن الصك مزوّر، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك بتاتاً، كان الصك حقيقياً".

"عجباً!عجباً!" قال مستر آترسون.

"إني أراك تشعر مثلي"، قال مستر إنفيلد. "أجل، إنها قصةٌ رديئة. لأن صاحبي كان رجلاً لن يطيقَ أحدٌ مسايرته، رجلاً لعيناً بحق؛ أما الشخص الذي أمضى على الصك فرجلٌ لبقٌ واسعُ الشهرة و من صفوة الناس، وهو (مما يزيد الطين بلّةً) واحدٌ من صحبك الذين يتوخّون ما يدعونه بالخير. هذا ابتزازٌ على ما أعتقد؛ رجل نزيه يدفع الثمن رغماً عن أنفه، بسبب بعض من نزوات صباه. بيت الابتزاز هو الاسم الذي أطلقتهُ تالياً على ذاك المكان ذي الباب. لكن ذلك كله، كما تعلم، بعيدٌ عن تفسير كلّ ما جرى"، أردف، وبنطقه هذه الكلمات استغرق في تيار أفكاره؛ حتى استدرجه مستر آترسون من هذا الاستغراق، طارحاً عليه سؤالاً مباغتاً: "ولا تعرف إذا ما كان صاحب الصكّ يقطنُ هناك؟"

"مكانٌ محتمل، أليس كذلك؟" رد مستر إنفيلد. "لكنني لحظتُ عنوانه بالصدفة؛ إنه يسكنُ في إحدى الساحات أو مكانٍ ما من هذا القبيل".

"ولم تستفسرْ قطّ عن ذاك المكان ذي الباب؟" قال مستر آترسون.

"كلا يا سيدي: إني أتمتّعُ باللباقة". كان الرد. "تراودني رغبةٌ قوية في طرح الأسئلة؛ فالمساءلاتُ تأخذُ قسطاً كبيراً في المنهج المعتمد يوم الحساب. تبتدئُ السؤال كأنك تحركُ حجراً. أنت جالسٌ في هدوءٍ على قمة إحدى التلال؛ الحجرُ يتدحرج بعيداً ويحركُ أحجاراً أخرى؛ فإذا بعجوزٍ مسكين الآن تُشجّ رأسُه في حديقته الخلفية (آخر ما قد يخطرُ لك)، فتضطرُ العائلة إلى استبدال اسمها. كلا يا سيدي، لقد جعلتُ هذه

المقولة قاعدةً لي: كلما ازدادَ المكانُ شبهاً بشارع كوير، أقللتُ بدوري من الأسئلة*".

"قاعدة مُثلى أيضاً"، قال المحامي.

"بيد أني تفحَّصتُ المكان بنفسي"، استكمل مستر إنفيلد."إنه يكاد لا يشبهَ المنازلَ في شيء. ما من باب آخر، ولا أحد يدخل أو يخرج منه، باستثناء بطل مغامرتي في أوقاتٍ متباعدة. للبناء ثلاثُ نوافذ تطلُّ على الفناءِ من الطابق الأول؛ ولا نوافذ تحت؛ النوافذ موصدة دائماً، لكنها نظيفة.ومن ثم هناك مدخنة يتصاعد منها الدخان عادة؛ فلا بد إذن أن أحداً ما يعيش هناك. ولكنني لم أقطع الشك باليقين بعد؛ فالمباني تتلاصق معاً حول ذاك الفناء، ومن الصعب أن تتبيّن أين ينتهي هذا المبنى وأين يبدأ مبنى آخر".

استأنف الاثنان سيرهما مرة أخرى لهنيهة، في صمت؛ ثم قال مستر آترسون "إنفيلد، إن قاعدتك لجيدة حقاً".

"نعم، أعتقد ذلك"، ردّ إنفيلد.

"أما بصدد ما قلته"، استكمل المحامي،" ثمة نقطة واحدة أودُّ استيضاحَها منك: أريد السؤال عن اسم ذاك الرجل الذي داس الطفلة".

"حسناً"، قال مستر إنفيلد، "إني لا أرى ضيراً في البوح به. كان رجلاً اسمه هايد".

"همم.."، قال مستر آترسون؛ "أي صنف من الرجال هو كما يبدو للعيان؟"

"ليس وصفه باليسير. ثمة خللٌ ما يعتري مظهره؛ شيء منفر، شيء بغيض للغاية. لم أرَ قط رجلاً أبغضته إلى هذا الحد، ومع ذلك أكاد لا أعرف العلة؛ فلا بد إنه مشوه في جزء ما من بدنه؛لأنه يعطي انطباعاً قوياً بالتشوه، وإن كنت عاجزاً عن تعيين موضع هذا التشوه. إنه رجل ذو مظهر غير عادي، ولكنني في الواقع لا أستطيع أن أصفه بأية طريقة. كلا، سيدي؛ لا أستطيع مساعدتك؛ لا أستطيعُ أن أصفه. ولا يرجعُ عجزي إلى ضعفِ ذاكرتي؛ فإني أصارحك إن بمقدوري استحضاره فأراه ماثلاً هذه اللحظة".

مرة أخرى سار مستر آترسون مسافة أخرى من الطريق وهو صامت يروزُ الأمر، والتأمل يُلقي على كاهليه بعبءٍ واضح. "هل أنت واثق من أنه استعمل مفتاحاً؟" استفسر أخيراً.

" يا سيدي العزيز..."، بدا إنفيلد مدهوشاً في قرارة نفسه.

"بلى، إني أعلم"، قال آترسون؛ "أعلم إن الأمر يبدو غريباً بلا ريب. والحقيقة هي أني لم أسألك عن اسم الشريك الآخر، لأني أعرفه للتو. أترى ريتشارد، حكايتك قد جاءت لمن يهتم بها، وما لم تكن دقيقاً في أية نقطة منها، فخيرٌ الآن أن تصحح ما قلت".

"كان عليك أن تنبّهني، كما أعتقد"، رد الآخر، ومسٌّ من الضيق يعتري نبرتَهُ. "لكنني كنت دقيقاً دقة مفرطة، كما تقول. كان لصاحبه مفتاح، بل ما يزال المفتاح بحوزته. رأيته يستخدمه منذ أسبوع مضى أو أقل".

تنفّس مستر آترسون الصُّعداء ولم يفُهْ بكلمة؛ فما لبث الشاب أن استأنف حديثه. "هو ذا درس آخر في وجوب الكتمان"، قال. "لساني الطويل يخجلني. لنتعاهد على ألا نشير البتّة إلى هذا الموضوع مرة أخرى".

"من صميم قلبي"، قال المحامي. "أصافحك على هذا العهد، ريتشارد".

البحث عن مستر هايد

عاد مستر آترسون أدراجه ذاك المساء إلى دار عزوبيته، كئيبَ النفس، وجلس إلى مائدة العشاء وشهيته قد جفَتْه. كان ديدنهُ أيام الآحاد، إذا ما انتهى من هذه الوجبة، أن يجلسَ قريباً من النار، وعلى منضدة قراءته مجلّدٌ من أحد الكتب المقدسة الجافة، ريثما تدقُّ ساعةُ الكنيسة المجاورة اثنتي عشر دَقّة، فيخلدُ عندئذٍ إلى سريره راضياً وهادئاً. أما في هذه الليلة، حالما رُفِع الغطاءُ عن المائدة، أمسكَ شمعة وقصدَ غرفةَ أعماله. هناك فتح خزينته، واستلَّ من القسم الذي يحفظ فيه أخصَّ أوراقه وثيقة مكتوباً على مغلفها (وصية دكتور جيكل)، وجلس مقطباً بعينين واجمتين يتفحص محتوياتها. كانت الوصية مكتوبة بخط صاحبها؛ لأن مستر آترسون، برغم أنها في عهدته الآن بعد كتابتها، كان قد أبى تقديم أية مساعدة،مهما ضؤُلَتْ، في أثناء تدبيجها؛ وما تنص عليه لم يقتصر على أنه في حال وفاة هنري جيكل الحائز على دكتوراه في الطب ودكتوراه في القانون وزميل الجمعية الملكية.. إلخ، تنتقل جميع ممتلكاته إلى حوزة "صديقه والمحسن إليه إداورد هايد"؛ بل إنها تفيد أيضاً بأنه "في حال اختفاء دكتور جيكل أو غيابه غير المفسر لأية مدة تتجاوز ثلاثة شهور من التقويم"، فإن المدعو إداورد هايد سيَرِثُ المدعوّ هنري جيكل دونما أي إبطاء، حراً من أي شرط أو التزام، باستثناء تسديد بعض المبالغ الصغيرة إلى عددٍ من ذوي قُربى الطبيب. ظلت هذه الوثيقة كالقذى في عين المحامي لأمد طويل. إنها تهينه بصفته محامياً وعاشقاً لجوانب الحياة العقلانية المعتادة، فالأمور الخيالية بالنسبة

إليه تفتقر إلى اللياقة. ولهذا كان جهله السالف بالمستر هايد قد فاقم نقمته؛ أما الآن، وبانعطافة مباغتة في مجرى الأمور، فمعرفته به هي سبب استيائه. كان الأمر من قبل سيئاً بما فيه الكفاية، عندما لم يكن هذا الرجلُ إلا اسماً لن يسعه معرفة المزيد عنه. وازداد الوضعُ سوءاً عندما أنشأ هذا الرجل يحتجب وراء خصال مقيتة؛ ومن خضم هذا الضباب المبهم المتحول الذي ظل يغشى بصره طويلاً انبثقَ الحضورُ المباغت والحاسم لوجه شيطان.

"خلتُ الأمر جنوناً"، قال وهو يُودِع الورقة البغيضة ركنها في الخزينة؛ "أما الآن فبتُّ أخشى أنه الخزي".

وبنطقه العبارة الأخيرة نفخ على شمعته فأطفأها، ثم ارتدى معطفاً كبيراً وخرج ميمماً شطر ساحة كيفنديش، وهي معقل الأطباء، حيث تقع دار صديقه الطبيب العظيم لانيون وعيادته التي تغصّ بالمرضى. فكر: "إذا وجد شخص واحد يعرف شيئاً، فهو لانيون".

عرفه كبير الخدم الوقور ورحّب به، ولم يدعه ينتظر ويتأخر، بل أرشده فوراً من الباب إلى غرفة الطعام حيث جلس دكتور لانيون وحيداً يرتشف نبيذه. كان دكتور لانيون رجلاً دمثاً، ودوداً، أنيقاً، موفورَ العافية، متورّدَ الوجه، صاخباً حازماً في خلقه، ذا شعرٍ كثّ غزاهُ الشيبُ قبل الأوان. ولمرأى مستر أترسون وثبَ عن كرسيه ورحّب به بكلتا اليدين. اللطافة المعهودة من قبل الرجل بدت للناظر مسرحية بعض الشيء، وإن كانت مستندةً إلى عاطفة كريمة. فهذان الرجلان صديقان قديمان، زميلان قديمان في المدرسة والكلية، كلاهما يحترم نفسه ويحترم صديقه احتراماً عميقاً، وكانا - وهو ما لا يترتّبُ دائماً على ذلك - يستمتعان بصحبة أحدهما الآخر.

و بعدما تجاذبا قليلاً أطراف الحديث، عرّجَ المحامي على الموضوع الكريهِ الذي كان يقلقُ باله كثيراً.

"أعتقد يا لانيون"، قال، "إننا، أنا وأنت، أقدم صديقين لهنري جيكل؟"

"ليت الأصدقاءَ أصغرُ سناً"، قهقه دكتور لانيون. " لكننا كذلك كما أعتقد.وما دعاك إلى هذا القول؟ إني لا أراه هذه الأيام إلا لماماً".

"حقاً!" قال آترسون. "ظننتكما مرتبطين بآصرة المهنة المشتركة".

"كنا"، كان جوابه. "لكن انقضى الآن ما يزيد عن عشرة أعوام مذ أضحى هنري جيكل بالنسبة إليّ رجلاً غريب الأطوار. أخذ يضلّ في الطريق الخاطئ، ضلال العقل؛

ومع ذلك ظللتُ بالطبع أهتم بشؤونه إكراماً للمودة القديمة كما يقولون. ما أراه وما رأيته من الرجل ليس إلا النزر اليسير، هذه الترهات الشيطانية البعيدة عن العلم"، أردف الطبيب، وقد تضرّج وجهه بغتة بالاحمرار، " كانت ستُوقعُ بين ديمون وبثياس"*.

كان لدفقة الحماس اللطيفة هذه وقعٌ مريح لدى مستر آترسون، ففكر "لم يختلفا إلا على مسألة علمية فقط"؛ وكونه امرأ ليست عنده أية ميول علمية (باستثناء ما يتصل بالعقود)، أردف لنفسه: "ليس في الأمر ما هو أسوأ!". وأمهل صديقه بضع ثوان ليهدأ روعه، ثم بادر لطرح السؤال الذي جاء من أجله.

"هل صادفت من قبل واحداً من صحبه، رجلاً يشمله برعايته - يُدعى هايد؟" سأل.

"هايد؟" كرر لانيون. "كلا، لم أسمع به قط. منذ وقت صحبتي".

كانت تلك هي كل المعلومات التي رجع بها المحامي مُحمَّلاً إلى سريره المظلم والعريض الذي ظل يتقلب فوقه جنوباً وشمالاً حتى انبلجت تباشير الصبح الأولى وراحت تتعاظم. كانت ليلة لم يطمئنّ فيها ذهنه المجهد إلا قليلاً، يكابد في الظلام الدامس مسهَّداً محاصَراً بالأسئلة.

قرعت الساعة السادسةَ نواقيسُ الكنيسة القريبة من سكنى آترسون على مرمى حجر، وهو ما يزال ينقّب في المحنة التي لم تمَسّسْهُ من قبل إلا من الناحية الذهنية فحسب؛ أما الآن فقد استحوذت خياله أيضاً، أو بالأحرى استرقّتْه؛ وعندما استلقى وتقلّبَ في ظلمة الليل التي تكتنف الغرفة المسدلة الستائر، مرت في ذهنه الحكاية التي رواها له مستر إنفيلد كلفافة من الصور المضيئة: سيتراءى له تارةً حقل المصابيح العظيم في مدينة استحلك الليل فيها؛ ثم سيرى هيئة رجل يسير خفيف الخطا؛ ثم طفلة تنطلق من عيادة الطبيب؛ وحينئذ يتلاقيان وذاك الوحش الآدميّ يدهس الطفلة ويمرّ مُغضياً عن صرخاتها. أو سوف يرى،تارة أخرى، غرفة في منزل ميسور، حيث استلقى صديقه نائماً، حالماً ومبتسماً في مناماته؛ ثم يُشرَّعُ باب تلك الغرفة وتُنحَّى ستائر السرير، ويستفيق النائم و،آه!، سيجد إلى جانبه هيئة انتصبت مفعمة بالجبروت، وحتى عندما تحين تلك الساعة الرهيبة سيتعيّن عليه النهوض من نومه لينفّذَ الأوامر. وطوال الليل، لازمت المحامي هذه الهيئةُ، في هذين الطورين كليهما؛ وإذا ما غشاه النعاس في أيّما برهة ما كان ليرى شيئاً سوى هذا الطيف ينسلُّ في خلسة الكرى خلل المنازل الهاجعة، أو يتنقّل في منتهى الرشاقة، تتناهى

رشاقته إلى حد الدوار، عبر متاهات أكثر اتساعاً في خفايا المدينة المضاءة بالمصابيح، وعند كل ناصية من نواصي الشوارع يسحق طفلة ويتركها وراءه تستصرخ. بيد أن هذا الطيف ليس له وجه يتعرّف به على صاحبه؛ وحتى في أحلامه يراه مفقود الوجه، أو يرى له وجهاً يصعقه ويذوب قدّام عينيه؛ وهكذا، على هذا المنوال، انبثق في ذهن المحامي فضولٌ وحيد ينمو ويتعاظم، عارمٌ وفوضوي تقريباً، أن يبصر ملامح هايد الحقيقي. لو تسنّى لعينيه أن تلاقياه ولو لمرة واحدة، فكّر، فإن اللغز سينجلي و لربما توارى برمته عن الأنظار، على غرار كل الأشياء الغامضة عندما تُستقصى خفاياها جيداً. لعلّه يهتدي إلى ذريعة تبرر غرابة سلوك صديقه الذي آثر البعضَ واستبعد سواهم (سمِّها كما يحلو لك)، وحتى لتفنّد تلك العبارات المفزعة في وصيته. و على الأقل، سيكون وجهاً جديراً بالرؤية: وجه رجل تخلو سريرته من أية شفقة، وجهاً لم يحرص صاحبه، في ذهن إنفيلد الذي يربأ بنفسه عن الخيال، إلا على استيقاظ روحٍ من الكراهية الدائمة.

منذ ذلك الحين، ما انفكّ مستر آترسون يتردد على ذاك الباب في شارع الحوانيت الفرعي. صباحاً قبل أن تُفتح المكاتب، ظهراً عندما تكثر المشاغل ويشحّ الوقت، وفي الليل تحت وجه قمر المدينة الغارقة في الضباب، عند كل المصابيح وفي جميع ساعات عزلته أو انخراطه في العمل، كان المحامي متواجداً عند عموده المصطفى يراقب الباب.

"إن كان هو المستر هايد"، فكّر، "كنتُ أنا المستر سيك*".

و أخيراً نال جزاءَ صبره. كانت ليلة جافة رائقة: الصقيع في الهواء؛ الشوارع مجلوّة كأنها قاعة للرقص، و القناديل التي لا ريحَ تهزهزها البتة ترسم أشكالها المعهودة من الظل و الضوء. و عند حلول الساعة العاشرة، حين تُوصَد الحوانيت، كان الشارع الفرعيّ غايةً في الوحشة ومطبقَ الصمت على الرغم من جلبة لندن التي تتوافد خافتةً من النواحي كافة. ضوضاء خفيضة كانت تتناهى؛ أصوات منزلية تنبعث من البيوت يمكن سماعها بوضوح على جانبي الطريق العام، وستتقدّمُ أيَّ عابر، بوقت طويل، إشاعةُ دنوّه. كانت قد انقضت على مستر آترسون بضع دقائق بعد مكوثه عند عموده، عندما استرعى انتباهه وقع خطى غريبة خفيفة تدنو. ففي أثناء جولاته الليلية كان قد اعتاد منذ أمد بعيد على تمييز أوهى تأثير يجيء من وقع قدمي شخص وحيد ما يزال بعيداً للغاية عن مسامعه، ينبثق وقع الخطى فجأة،

متميزاً عن شساعة الضوضاء والضجة في المدينة. ومع ذلك، لم يسبق له قط أن كان مشحوذ الانتباه إلى هذا الحد ومُستحوَذاً عليه بهذا النحو الدقيق، وقد واتاه النجاح عبر رؤية استباقية قوية وعصية على التصديق، فانسحب دالفاً إلى مدخل الفناء.

كانت الخطوات تتدانى متسارعة، وتعاظم على حين غرة وقعُها عندما انعطفت عند ناصية الشارع. وسرعان ما استطاع المحامي، مستطلعاً من المدخل، أن يتبيّن مع أي ضرب من الرجال سيتعيّن عليه أن يتعامل. كان رجلاً ضئيلاً، وبسيطاً للغاية في ملبسه، وطلعته، حتى من تلك المسافة، أثارت انقباضاً عند الشخص الذي يترصّده. لكنه مضى قدماً صوب الباب، وقطع الشارع العام كيما يوفّر وقته؛ و عند اقترابه استلّ من جيبه مفتاحاً كمن يقترب من بيته.

خرج مستر آترسون من مكمنه، فلامس كتفه عند مروره. "مستر هايد، على ما أظن؟"

ارتدّ مستر هايد إلى الوراء مُجْفلاً وقد ندّت عنه شهقة مسموعة. لكن خوفه كان وجيزاً؛ ومع إنه لم ينظر للمحامي في وجهه فقد أجابه في كثير من رباطة الجأش: "ذاك هو اسمي، فماذا تريد؟"

"إني أراك داخلاً"، جاوبه المحامي بدوره. "أنا صديق من أصدقاء دكتور جيكل القدامى، مستر آترسون، من غاونت ستريت ـ وأظن إنك قد سمعت باسمي؛ وحسبتُ، أنا الذي كثيراً ما أصادفك، إنك قد تأذن لي بالدخول".

"لن تجد دكتور جيكل؛ إنه ليس في البيت"، رد مستر هايد وهو يدير المفتاح في القفل. ثم استفسر بغتة بدون أن يرفع ناظريه، "كيف تعرّفت إليّ؟"

"من جهتك أنت"، قال مستر آترسون، "هل ستُسدي إليّ معروفاً؟"

"بكل سرور"، رد الآخر. "وما عساه يكون؟"

"هل ستسمح لي بأن أرى وجهك؟" سأله المحامي.

بدا مستر هايد متردداً؛ ثم، كمن انقاد لإلهام مباغت، واجهه بتحدٍ واستخفاف؛ وحدّق الاثنان أحدهما بالآخر تحديقاً ثابتاً دام ثواني معدودات.

"والآن سأتعرف إليك مجدّداً"، قال مستر آترسون. "فقد أجني من هذا بعض المنفعة".

"أجل"، رد مستر هايد، "ومن حسن الطالع أننا التقينا؛ وبهذه المناسبة لابد أن تأخذ عنواني"، وأعطاهُ رقماً في شارع من شوارع حي سوهو.

"رحماك، يا رب!"، فكر مستر آترسون، "هل يُعقل أن الوصية كانت تشغل تفكيره هو أيضاً؟" لكنه احتفظ بأحاسيسه لنفسه، واكتفى بالهمهمة لدى استبيانه العنوان.

"والآن"، قال الآخر، "كيف تعرّفتَ إليّ؟" فكانت الإجابة، "من خلال أوصافك".

"أية أوصاف؟"

"لدينا أصدقاء مشتركون"، قال مستر آترسون.

"أصدقاء مشتركون"، رد مستر هايد، بنبرة يشوبها قليل من الخشونة. "ومن هم"؟

"جيكل، على سبيل المثال"، قال المحامي.

"لم يُخطرك بذلك قط"، صاح مستر هايد مستشيطاً في سورة غضب. "ما ظننتُ إنك ستختلق الأكاذيب".

"مهلاً"، قال مستر آترسون، "ليست هذه باللغة اللائقة".

و زمجر الآخر مدوياً في قهقهةٍ سافرة؛ وفي اللحظة التالية، في سرعة غريبة كان قد فكّ عن الباب رتاجه وتوارى داخل البيت.

لبث المحامي هنيهة حيث تركه مستر هايد، كأنه صورة تجسّد القلق. ثم شرع بارتقاء الشارع متريّثاً، متوقفاً كلما خطى خطوة أو اثنتين، رافعاً يده إلى حاجبه كمثل رجل بلبلت الحيرةُ ذهنه. وكان المأزق الذي يتملاه، ماشياً على هذا النحو، واحداً من تلك المآزق التي يستعصي حلُّها إلا نادراً. كان مستر هايد شاحباً وشبيهاً بالأقزام؛ فقد أوحى بانطباع شديد الفظاعة بدون أن يسمه أي تشوُّه أو عاهة، كيفما كان نوعه، ابتسامته كريهة، كما قدّم نفسه إلى المحامي بطريقة تبدى فيها خليط من الاستكانة والجسارة، وتكلم ببُحّة مهموسة جشّاء ومتهدّجة قليلاً. كانت كل هذه الوقائع قرائنَ ضدّه؛ لكنها لن تستطيع، حتى لو اجتمعت كلها سوياً، أن تفسّر الاشمئزازَ المُبهم التالي، و القرفَ والخشية التي رآه بها مستر آترسون."لابد من وجود شيء آخر"، قال الجنتلمان الحائر. " ثمة شيء إضافي، لو كان بمستطاعي أن أجد له اسماً. فلتباركني، رباه، فالرجل لا يمتّ إلى البشر إلا بأوهى الصلات! أيجوز لنا القول: ثمة شيء فيه أقربُ إلى سكان الكهوف؟ هل من الممكن أن تتكرّر القصة القديمة للدكتور فلْ؟ أم إنه محضُ إشعاعٍ من روح دنسة يتنقّل على هذا النحو عبر عفّة الصلصال متقمّصاً مختلفَ أشكاله؟ إني أرجّح الاحتمال الأخير؛ آه، يا صديقي

القديم، هاري جيكل المسكين، إذا كنت قد قرأتُ من قبل إمضاءَ الشيطان على وجه أحد، فهو الإمضاءُ مكتوباً على وجه صديقك الجديد!".

عند ناصية الشارع الفرعي تلتفّ ساحة اصطفّت من حولها منازل عتيقة أنيقة هي الآن متداعيةٌ في معظم أقسامها وولّت مكانتها المرموقة، إذ تُؤجَّر شققها وحجراتها لضروب الرجال وصنوفهم كافة: صناع الخرائط، المهندسين المعماريين، المحامين الصغار، ووكلاء المشاريع المغمورة. وعلى أية حال، ما زال هناك منزل مستأجر بأكمله، ترتيبه الثاني بدءاً من الناصية؛ وعلى أعتاب هذا المنزل الذي تطفحُ فخامةُ جوِّهِ بالترفِ والجاه، رغم أنه الآن غارق كله في الظلمة ما خلا نور يتذبذب. توقف مستر آترسون وقرع الباب، ففتحه خادم كهل حسن الهندام.

"هل دكتور جيكل في البيت، بول Poole؟" سأل المحامي.

"سوف أرى، مستر آترسون"، قال بول، محسناً وفادة الزائر، وقاده وهو يتكلم إلى قاعة فسيحة وثيرة واطئة السقف، مرصوفة بالمرمر، مُدفَّأة (على طراز منزل من منازل الريف) بموقد مفتوح ناره ساطعة، ومُؤثَّثة بخزانات ثمينة قُدَّتْ من خشب البلوط.

"هل ستنتظر هنا، إلى جوار النار، سيدي؟ أم أوقد لك شمعة في غرفة الطعام؟"

"هنا، أشكرك"، قال المحامي؛ ثم دنا من سياج الموقد العالي واتّكأ عليه. كانت هذه القاعة، حيث تُرِك الآن منفرداً بنفسه، خيالاً أليفاً من خيالات صديقه الطبيب؛ وكان مستر آترسون نفسه يهوى الحديث عنها كأروع غرفة في لندن. لكن الليلة ثمة رعدة تسري في دمه؛ وجه هايد يرزح بثقله على ذاكرته؛ شَعر (وقلّما ينتابه هذا الشعور) بالغثيان والكراهية إزاء الحياة؛ وفي قرارة روحه المكتئبة بدا كأنه يقرأ وعيداً في نور اللهب المتراقص على خشب الخزانات المصقول، وتواثب الظل المقلق على السقف. ولكم أحرجه ارتياحه عندما رجع بول على أعقابه تواً ليبلغه بخروج دكتور جيكل.

"لقد رأيت مستر هايد يدلف من باب غرفة المشرحة القديمة، بول،" قال."صحيح؟ متى غادر دكتور جيكل البيت؟".

"للتو واللحظة، مستر آترسون، سيدي"، أجابه الخادم. "إن لدى مستر هايد مفتاحاً".

"يبدو أن سيدك يمحضُ ذاك الشاب قدراً عظيماً من الثقة، بول،" استأنف الآخر حديثه وهو يفكر.

"أجل، سيدي، إنه يمحضهُ إياها حقاً"، قال بول. " لدينا جميعاً أوامر مطلقة بإطاعته".

"لا أحسب إني التقيتُ بالمستر هايد من قبل؟" سأل مستر آترسون.

"أوه، كلا، سيدي العزيز. إنه لا يتناول طعامه هنا البتة". أجابه كبير الخدم. "في الحقيقة، قلما نراه في هذه الجهة من المنزل؛ فهو، في غالب الأحيان، يروح ويجيء عبر المختبر".

"حسناً، طابت ليلتك، بول".

"طابت ليلتك، مستر آترسون".

واتجه المحامي إلى منزله وهو مثقل الفؤاد، يفكر: "هاري جيكل المسكين، إن عقلي يوسوسني بأنه يغوص في مستنقع عميق! كان طائشاً في شبابه؛ ويقيناً منذ أمدٍ مغرقٍ في القدم؛ لكن، في قانون الله لا وجود لأي حدٍّ أو قيد. آه، هو ذا لا محالة: شبح خطيئة قديمة، سرطان خزي دفين؛ و ها قد حان القصاص متأخراً، pede claudo، بعد سنين من نسيان الذاكرة لهذه الزلّة، وبعد أن اغتفرها حبُّ الذات". واستغرق المحامي، الخائفُ من الفكرة، في ماضيه الشخصي برهة، يجوب أركان الذاكرة قاطبة، مخافة أن يقفز كعفريت العلبة* إلى الضياء هناك، وبمحض المصادفة، طيفُ إثمٍ قديم. كان ماضيه خالياً من المثالب خلواً معقولاً؛ رجال قلائل يستطيعون مثله قراءة سجلات حياتهم بهذا القدر القليل من الخشية والتوجس؛ فقد تواضعت نفسه جراء كثرة الأشياء المشينة التي اقترفها، ثم ارتقى بنفسه مجدداً إلى طمأنينةٍ متّزنة يكتنفها الوجَل جراء الأشياء الكثيرة التي اقترب من ارتكابها قاب قوسين أو أدنى لكنه تحاشاها. ثم، ولدى عودته إلى موضوعه السابق، لاحت له بارقة أمل، ففكر: "إذا خضع مستر هايد هذا للدراسة، فلا بد أن دخيلته تنطوي على أسراره الخاصة به: أسرارٌ سوداء، كما يشي مظهره، إن قُورِنتْ بها أفظعُ أسرار جيكل المسكين لبدت الأخيرةُ مشرقة كضياء الشمس. لن تستمر الأشياء على ما هي عليه. وإني لأقشعر قشعريرة باردة إذا ما خطر لي هذا المخلوق يتسلّل كاللص ليحاذي سرير هاري؛ مسكين هاري، يا لاستفاقتك! ويا لخطورتها! فإذا ارتاب هايد هذا في وجود الوصية، فقد ينفد صبره قبل أن يرثك. أجل، سأوقف بمنكبيَّ هذه العجَلة، فقط لو أذنَ لي جيكل"، أردف قائلاً، "فقط لو أذنَ لي جيكل". وتراءت، مرة أخرى، أمام عينه الباطنية، واضحةً كصورةٍ يشعُّ النور خلفها، عباراتُ الوصية الغريبة.

طمأنينة دكتور جيكل كانت غامرة

بعد مرور أسبوعين، لحسن الطالع الكبير، دعا الطبيب إلى إحدى مآدبه الحافلة خمسةً أو ستة من صحبه الحميمين، وجميعهم رجال أذكياء موقَّرون، كلهم له خبرة في تذوق جودة النبيذ؛ اهتدى مستر آترسون إلى حيلة كي يلازم المكان بعد انصراف الآخرين. ولم تكن حيلةُ المكث هذه تدبيراً جديداً، فقد تكرر حدوث مثيلاتها عشرات المرات. إذ حيثما وجد آترسونَ ترحاباً فإنه يُحَبُّ كثيراً. كان المضيف يحب أن يحتجز المحامي الجاف الطبع لديه في نفس الوقت الذي يضع الضيوف ذوو الألسنة المنفلتة والأمزجةِ المرحة أقدامَهم على عتبة المنزل؛ وهم يودون أن يجالسوه قليلاً في رفقته المنزوية يتمرنون على العزلة، وتسترد أذهانهم عافيةَ اتّزانها في سخاء صمت الرجل بعد الذي أنفقوه من حيويتهم وأعصابهم في المرح. ولم يكن دكتور جيكل بمُستثنى من هذه القاعدة؛ وبجلوسه على الجهة المقابلة من النار - رجلاً في عامه الخمسين، ضخم الجثة مرصوص البنيان، مكتنز الوجه تنمّ سحنته على الأرجح عن شيء من الدهاء، لكن فيها جميع خصال الدماثة والمقدرة- فبمستطاعك أن تستشفَّ من ملامحه حرارةَ المودة المخلصة التي يكنُّها مغتبطاً لمستر آترسون.

"إني راغب في التحدث إليك منذ مدة، جيكل"، بادر الأولُ الثاني. "تذكرُ وصيتك تلك؟"

ولربما استجلى امرؤ يراقب عن كثب مدى النفور الذي أثاره هذا الموضوع؛ لكن الطبيب سارع ليبدّده في مرح، "صديقي المسكين أترسون"، قال، "لستَ محظوظاً مع

مثل هذا الموكّل. لم أرَ قط رجلاً مثلك ينتابه الضيق من وصيتي؛ إلا إذا تغافلنا عن بَرَم ذاك المتحذلق الغليظ الجلد لانيون، حيال ما يسميّه هو بهرطقاتي العلمية. أوه، أعرف إنه صاحب جيد ـ لا تحوجك التقطيبة ـ صاحب ممتاز، وأنا أرقُب رؤيته دائماً في سري؛ لكنه لجميع تلك الأسباب دَعِيٌّ متنكّر، متحذلقٌ جهولٌ سمج. لم يخيّب رجلٌ ظني قط مثلما خيّبهُ لانيون".

"أنت تعرف بأني لا أوافقك الرأي أبداً"، استتبع آترسون، ملحاً بقسوة وعزم على الموضوع الطازج.

"وصيتي؟ بلى، يقيناً إني على معرفةٍ بما جرى"، قال الطبيب، واحتدّ تهكّمه. "كثيراً ما أعربتَ عن عدمِ رضاك عنها".

"حسناً، وها أنذا أعيد روايتي على مسامعك من جديد"، استكمل المحامي. "لقد تناهت إليّ بعض الأنباء عن الشاب هايد".

امتقع وجه دكتور جيكل الأنيق و شحب حتى اختلجت شفتاه، ثم بانت من حول مقلتيه هالتان سوداوان."لست أبالي بسماع المزيد"، قال. "هذه مسألة ظننتُ إننا اتفقنا على التغاضي عنها".

"ما سمعتُه كان مقيتاً،" قال آترسون.

" لن يجدي ما سمعتَ في تغيير أي شيء. أنت لا تتفهّم وضعي". ردّ عليه الطبيب بطريقة مفكّكة التعابير." تؤلمني حالتي الراهنة، آترسون؛ إن وضعي بالغ الغرابة ـ بالغ الغرابة. فهذا شأنٌ من تلك الشؤون التي لا يمكن إصلاحها بالكلام".

"جيكل"، قال آترسون،" أنت تعرفني: أنا رجل يُوثَق به، فافضِ لي بما يكنُّه صدرك، وسأحفظه سراً. وإني لأجزم لك بأني سأقدر على انتشالك مما أنتَ فيه".

"صديقي الطيب آترسون"، قال الطبيب، "هذا نبل بالغ فيه منك ودليل على طيبتك المتناهية، والكلمات لا تسعفني كي أشكرك. كلّي إيمان بك؛ فأنا أثق بك قبل أي رجل آخر في هذه الحياة، لا بل،آه، قبل نفسي، لو كان الخيار لي؛ لكن الأمر في الواقع ليس كما تتوهّمُه؛ ولم يصل به السوءُ هذا المبلغ، وكيما يطمئنٌ قلبك الطيب فحسب سأخبرك شيئاً واحداً: بمستطاعي أن أتخلص من مستر هايد لحظة أشاء، وها أنا أمدّ إليك يدي معاهداً على ما قلت، وأشكرك وأكرّر شكري؛ وسوف أضيف كلمة واحدة صغيرة، آترسون، موقناً إنك لن تتضايق بها: هذه مسألة شخصية، أتوسل إليك ذَرْها طيٌّ رقادها".

استغرق آترسون في التفكير هنيهة محدقاً بالنار.

"ما منْ شكٍّ لدي في أنك على حق تماماً"، قال ختاماً، ونهض على قدميه.

"حسناً، لكن طالما إننا تطرّقنا إلى هذا الموضوع، وللمرة الأخيرة كما أرجو واصل الطبيب حديثه، "ثمة نقطة وحيدة أودّ منك أن تفهمها. عندي حقاً اهتمامٌ عظيم بالشاب المسكين هايد. أعرف إنك قد شاهدته؛ فقد أخبرني بذلك؛ وأخشى إنه كان فظّاً معك. لكنني، متفانياً، أبذل قسطاً كبيراً من الاهتمام تجاه ذاك الشاب؛ وإذا قضيتُ،آترسون، أتمنى أن تعدني بأنك ستشدُّ أزرَه، وتتحمله وتحصل له على حقوقه. أظنك ستعدني لو عرفت كل شيء؛ وسينزاح هذا العبء عن ذهني لو قطعتَ الوعد"

لا أستطيع الادّعاء بأني سأحبُّه يوماً"، قال المحامي.

" لا أسألك أن تخطب ودَّه"، توسّلَ جيكل، ملقياً بيده فوق ذراع الآخر؛" ما أنشدُهُ الإنصافُ وحسب؛ حسبي أن تساعده إكراماً لي، عندما لا يعود لي أيُّ أثر هنا".

زفر آترسون تنهيدةً لم يُفلِحْ في كتمانها. "حسناً"، قال، "أعدُك"

مقتل كارو

بعد انقضاء زهاء السنة، في شهر تشرين الأول ـ ١٨، بُوغتت لندن بجريمة اتّسمت بوحشية غريبة زادها شهرة أن الضحية مرموق المنزلة. كانت التفاصيل معدودة و مفزعة. خادمة تعيش بمفردها في منزل يقع على مقربة من النهر، كانت ترتقي السلالم لتخلد إلى النوم قبيل الساعة الحادية عشرة. ورغم ضباب كان يطفو فوق المدينة في الساعات الأولى من الصباح، كان مطلع الليل ساجياً لا يكدّر صفوَه الغيمُ، وكان الحيُّ الذي تطلّ عليه نافذةُ الخادمة يستنيرُ بالقمرِ في سطوع اكتماله. ويبدو إنها كانت رومانسية المزاج؛ فقد جلست فوق صندوقها المنصوب تحت النافذة بالتحديد، قبل أن تهوي في حلم رهيب. أبداً (كانت تكرر هذا القول، فتفيض عيناها بالدمع كلما سردت تلك الواقعة)، لم يصدفْ لها قطّ أن شعرت بمثل تلك الطمأنينة حيال البشر جميعاً، وفكرت بالعالم عندئذ تفكيراً ملؤُه السماحةُ. و في أثناء جلوسها هناك استرعى انتباهها جنتلمان مسنٌ بهيُّ الطلعة شائب الرأس، يسير بخطى تدنو على امتداد الحي؛ وكان متّئداً في مسيره ليلاً ليلاقيه جنتلمان آخر قصير القوام لم تُعِرْهُ في البداية بالاً. وعندما خاض كلاهما غمارَ الكلام (الذي كان يدور تحت ناظري الخادمة تماماً) انحنى الرجل الأكبر سناً وبادر الآخر بدماثة وأدب جمّ. ويبدو أن الموضوع الذي تكلم فيه لم يكن ذا شأن كبير؛ ففي الواقع، لاح من خلال إيماءاته أحياناً كأنه يستفسر عن وجهة الطريق فحسب؛ بينما القمرُ ينيرُ وجهَهُ وهو يتكلم، والفتاة مستمتعةٌ بما تراه منه، فقد عبق محياه بأمارات براءةٍ و لطافة

آتيتين من عهدٍ قديم، وإن تمثّلت فيه أيضاً رفعةٌ تدل على شخصية قوية مفعمة بالرضا. ثم شخصت بعينها نحو الرجل الآخر فشُدهت إذْ تعرفت فيه إلى مستر هايد الذي قام ذات مرة بزيارة سيدها، واحتفظت تجاهه بشيءٍ من الكراهية. كانت يده تقبض على عصا ثقيلة يعبث بها لكنه لم يتفوّه بكلمة واحدة قط ليجيب الآخر، وبدا أنه بَرِمٌ بالإنصات وقد عِيلَ صبره الذي يطفح غلاً. ثم، وعلى حين غرة، انفجر في سورة غضب، وراح يضرب الأرض بقدمه، ملوّحاً بالعصا، وكان يتصرّف (كما وصفته الخادمة) مثل رجل مجنون. ارتدّ الجنتلمان العجوز خطوة إلى الوراء، وله ملامح امرئ ألمَّ به ذهولٌ عظيم وآلمَتْهُ السخرية؛ وعندئذ طوّحَ مستر هايد بالقيود كلها فأهوى عليه بالعصا حتى صرعه أرضاً. وفي اللحظة التالية، في مثل ضراوة القرد، انقضَّ على الضحية بقدمه يدوسها، مسدّداً عاصفةً من الضربات التي تهشّمت العظامُ تحت انهيالها بطقطقاتٍ مسموعة، و تواثبَ الجسدُ على قارعة الطريق. قد خلبَ الذعرُ الخادمةَ إزاء فظاعة هذه المناظر والأصوات فأُغمي عليها.

كانت الساعة هي الثانية بعد منتصف الليل عندما ثابت إلى رشدها واستنجدتْ بالشرطة. كان القاتل قد اختفى منذ مدة ليست بالقصيرة؛ لكن ضحيته لبثت مطروحة هناك في وسط الحي، وقد شُوِّهت تشويهاً رهيباً. كانت العصا التي اقتُرِفَت بها هذه الجريمة، وعلى الرغم من صَلادة ونُدْرة الخشب الثقيل الذي قُدَّت منه، قد انكسرت من منتصفها جرّاء هذه القسوة الهوجاء؛ فتدحرجَ أحد النصفين المتشظيين في الميزابة المجاورة، أما النصف الآخر فقد أخذه القاتل معه بلا ريب. كما عُثر فوق جثمان الضحية على محفظة نقود وساعة يد ذهبية؛ لكن ما منْ بطاقة أو أوراق تبيّنُ هويته، ما عدا ظرف مختوم صُمِّغَت الطوابع على غلافه، كان على الأرجح في طريقه كي يودعَ في البريد الرسالةَ التي تحمل اسم مستر آترسون وعنوانه.

وفي صبيحة اليوم التالي، جِيءَ بهذه الرسالة إلى المحامي قُبيل نهوضه من الفراش؛ ولم يطُلْ بهِ الوقت حتى رآها و رووا له ظروف الحادث، فزمَّ شفتيه في وجوم وقال: "لن أقول شيئاً ما لم أرَ القتيل؛ فقد يكون الحادثُ غايةً في الخطورة. هلا تفضّلتم بالانتظار لطفاً، ريثما أرتدي ثيابي". وبالسحنة الرصينة إياها، استعجلَ في تناول فطوره وانطلق إلى قسم الشرطة، حيث نُقلتْ جثةُ القتيل.

وحالما دلفَ إلى داخل الزنزانةِ التي سُجّيَ فيها الجثمانُ، هزّ رأسه وقال: "بلى،

إني أعرفه. يؤسفني أن أقول إن هذا هو السير دانفرز كارو".

"رحماك يا ربّ، سيدي!"،هتفَ الضابطُ، متعجّباً. "هل هذا ممكن؟"، وفي اللحظة التالية ائتلقتْ عيناه ببريق طموح مهني. "سيثير هذا الحادث ضجة كبرى"، قال." ليتك تستطيع أن تمدّنا بالمعونة لنهتديَ إلى الجاني". واقتضب في سرد ما رأته الخادمة، وأراه العصا المكسورة.

كان آترسون قد اقشعرّ منذ قليل لدى سماعه اسم هايد؛ ولكن عندما وُضعت العصا أمامه، قطع دابرَ الشك باليقين: لقد تعرف فيها، مثلما هي الآن مكسورة ومتشظّية، على العصا التي كان قد أهداها بنفسه إلى هنري جيكل منذ سنين عديدة.

"هل مستر هايد هذا شخص قصير القامة؟" استفسر.

"قصير ودميم الخلقة على وجه الخصوص: هذا ما تنعتهُ به الخادمة"، قال الآخر.

سرح مستر آترسون بذهنه؛ ثم رفع رأسه وقال: "إذا رافقتني في عربتي، فأظنني قادراً أن أقلّك إلى منزله".

كانت الساعة،آنذاك، حوالي التاسعة صباحاً، ميقات تباشير الضباب الأولى لهذا الفصل. حجاب عظيم بلون الشوكولاته خفيضاً يغطي السماء، لكن الريح استمرت تسوقُ هذه الأبخرةَ المتناثرة وتبدّدها؛ هكذا، والعربة تزحف وئيداً من شارع إلى شارع، أبصرَ مستر آترسون عدداً مدهشاً من تدرُّجات الشفق وتلاوينه؛ فههنا يستحلكُ وكأنه ختامُ المساء؛ وهناك شعلةٌ بنيةُ اللون يتأجّجُ لهيبها مثل ضياء حريقٍ غريب؛ وهنا سينقشعُ الضبابُ تماماً للحظة، فيومض مجرىً ناحلٌ من بصيص النهار بين أكاليل الغمام المضفورة المدوّمة.حيٌّ سوهو المقيت، مرئياً من خلال هذه اللمحات المتحولة، بمسالكه الموحلة و عابراته القذرات والمارّة القليلين، وقناديله التي ما خمدت جذوتها قط، ولا أُضرمت فيها نارٌ جديدة كي تعاركَ هذا الغزوَ الجنائزيَّ الذي تعاود الظلمةُ شنَّهُ؛ تراءى الحيُّ لعينيّ المحامي مثل مقاطعة من مدينة تلوح في كابوس. إلى جانب هذا، كانت الأفكارُ التي تجوبُ ذهنه تصطبغُ بأشدّ الكآبات قتامة؛ و إذ رمقَ رفيقَ جولته، بات مدركاً لأثرِ ما ولّدهُ فيه ذاك الذعرُ الذي ينتابه إزاء القانون ورجال القانون، ذاك الذعرُ الذي قد يعتري في بعض الأحايين أشرفَ الرجال.

ولمّا ارتقت العربةُ بهما صوب العنوان المقصود، انقشعَ الضباب قليلاً فأراه شارعاً قذراً، حانة لشرب الجن، مطعماً فرنسياً واطئاً، حانوتاً يبيع بالتقسيط جرائدَ

رخيصة وسلَطات ثمنها بنسان اثنان، أطفالاً كثراً تهلهلت رثاثةُ أسمالهم متجمهرين في مداخل الأبنية، ونسوة كثيرات من أممٍ متباينة شتّى يغادرن والمفاتيح في أيديهن كيما يتناولن كأسَ الصباح؛ وفي اللحظة التالية عمَّ الضبابُ مرة أخرى، هابطاً فوق ذاك الشطر، بنيٌّ اللون كالكهرمان، وحال دون رؤيته قتامةَ المحيط الذي يكتنف الجوار. وها هو ذا منزلُ أحبِّ أصدقاء هنري جيكل إليه؛ منزلُ رجل وُرِّثَ ربع مليون إسترليني.

فتحت البابَ عجوزٌ تفضّضَ شعرُها وغدا وجهها عاجياً. كان لها وجه شرير ملّسَ تجاعيدَه الرياءُ؛ بيد أنها كانت مهذبة في سلوكها. نعم، قالت، هذا منزل مستر هايد، لكنه لم يكن متواجداً فيه؛ ففي تلك الليلة عاد أدراجه في ساعة متأخرة للغاية، ثم عاود المغادرة مجدداً في غضونِ ساعة أو أقل. ما من شيء غريب في ذاك الأمر؛ فعاداته مُغرقةٌ في عدم انتظامها، وكثيراً ما يتغيّب؛ على سبيل المثال، لقد انقضى شهران تقريباً مذ رأتْهُ آخر مرة حتى يوم أمس.

"حسناً، إذن، نودّ أن نرى الغرف"، قال المحامي؛ وعندما انبرتِ المرأةُ لتفضي لهما باستحالة المطلب، أردف قائلاً: "يحسنُ أن أخبركِ مَنْ هذا الشخص، هذا هو المفتّش نيوكامن من إسكوتلانديارد".

وأشرقتْ في محيا المرأة ومضةُ جذل مقزّزة. "آه"، قالت،" إنه في ورطة! ماذا فعل؟".

مستر آترسون والمفتش تبادلا النظرات. "يبدو أنه شخص غير محبوب كثيراً"، نوّه الأخير. " والآن يا سيدتي الفاضلة، هلا تركتِنا أنا وهذا الجنتلمان لنلقي نظرة حولنا".

وراحا يجولان في كافة أرجاء المنزل الذي لولا العجوزُ الدميمة لقبعَ على حاله خاوياً، فالمستر هايد لم يشغل سوى غرفتين اثنتين؛ لكنهما مؤثّثتان تأثيثاً باذخاً رفيعَ الذوق. ثمة خزانة ملآنة نُضِّدَتْ فيها زجاجاتُ النبيذ؛ وأدواتُ مائدة من فضة؛ وأغطيةٌ بيضاءُ نظيفة؛ وعلّقتْ إلى الجدار لوحةٌ بهية هي هدية (كما خمّن آترسون) من هنري جيكل الذي لا جدال في ذائقته وخبرته؛ وكانت السجاجيدُ كثيرةَ الثنايا متناسقةَ الألوان. كانت الغرفتان في هذه البرهة، بأية حال، موسومتين بجميع العلامات التي يُستدَلُّ بها على أن الأغراض قد نُبِّشَتْ للتوّ وعلى عجل: الملابسُ ملقاة على الأرضية مبعثرة وجيوبها مقلوبة؛ أدراجُ الخزائن ذواتُ الأقفال المُحْكَمة

مفتوحة؛ وفي المُصطلى ترقد حفنة من رماد فضي وكأن أوراقاً كثيرة قد أُحرقت هناك. من وسط هذا النثار انتشل المفتش العقبَ المتبقي من دفتر صكوك أخضر كان قد قاوم حريق النار؛ وكان النصف الآخر من العصا وراء الباب؛ ولما استقوَتْ شكوكُه بهذه القرائن ألفى المفتش نفسه محبوراً. واختتمَتْ رضاهُ زيارةٌ إلى المصرف، حيث عُثِر على بضعة آلاف جنيه تمّ إيداعها في رصيد القاتل.

"تأكّد يا سيدي"، أفضى للمستر آترسون. "إنه قبضُ يميني. لابد إنه فقَدَ صوابه، و إلا ما كان سيترك العصا وراءه، و - ناهيك عما قلتُ آنفاً - لما أحرق دفتر الصكوك. لماذا، فبالمال يحيا الرجال. وليس لنا إلا أن ننتظر قدومه إلى المصرف ونستلم الصكوك".

وعلى أية حال، لم يكن استكمالُ هذا البند الأخير يسيراً؛ إذ ليس لدى مستر هايد إلا بضعة خُلَصاء معدودين، حتى سيد الخادمة الشاهدة لم يرَهُ إلا مرتين فحسب؛ ولا يمكن اقتفاءُ نَسبِ عائلته في أي مكان؛ ولم يلتقط قط أية صورة فوتوغرافية؛ و القلّةُ التي تستطيع أن تحدّدَ أوصافه تتباين فيما بينها على نطاق واسع، مثلما يتباين سائرُ الشهود، لكنهم أجمعوا متفقين على نقطة واحدة فقط؛ وهي الإحساسُ المقبض بتشوّهٍ يتعذّر التعبيرُ عنه، به يخلبُ الفارُّ كلَّ من يراه.

حادثة الرسالة

عندما قادت الخطى مستر آترسون- بعد أن تقدّمت الظهيرة- إلى باب دكتور جيكل بادرَ بول إلى استقباله على الفور، وتقدّمه عبر جنَبات المطبخ ليدلّه، عبر فناء كان فيما مضى حديقة، صوب البناء المعروف بالمختبر أو غرف التحاليل على السواء. ابتاعَ الطبيبُ هذا المنزل من وَرثَة جرّاحٍ ذائع الصيت؛ وكانت ميوله الخاصة التي تنزع إلى الكيمياء أكثر من نزوعها إلى علم التشريح قد غيّرت مآلَ المبنى عند أرض الحديقة. وكانت تلك المرة الأولى التي يُستقبَل فيها المحامي في ذاك القسم من دار صديقه؛ واستقرّت عيناه بفضول على قذارة الهيكل الخالي من النوافذ، وحملقَ حوله وبه إحساسٌ بالغرابة والامتعاض لمّا قطع المشرحة التي كانت تزدحمُ في ما مضى بطلبةٍ شغوفين. أما الآن فتقبعُ كابيةً يلفُّها الصمت تتزاحم على مناضدها المعدّاتُ الكيمياوية، وعلى أرضيتها تبعثرَتْ القواريرُ وانتثرت أكوامُ القشّ و أنابيبُ الاختبار، والضوء ينسكب كابياً خلل قبّة الفرن الذي تغشاهُ الأبخرة. وفي النهاية القصوى ثمة درجٌ لولبيّ هو المُرتقى إلى بابٍ يكسوهُ قماشُ بيز أحمر اللون؛ عبْرَ هذا الدرج أقلّوا مستر آترسون أخيراً إلى مكتب الطبيب الخاص، وهو غرفة فسيحة نُمّقت بأواني البللور وأُثّثتْ - من بين أشياء أخرى - بمرآةٍ مؤطّرة وطاولة للعمل، كما تطلّ على الفناء من خلال ثلاث نوافذ مغبرة تقلّمها قضبانُ الحديد. كانت النار تضطرم في المصطلى؛ وثمة مصباح مشتعل على إفريز المدخنة، فالضبابُ شرعَ يتثاقل كثيفاً فوق كل شيء، حتى في داخل المنازل؛ وهناك، على مقربةٍ من الدفء الحميم، جلس

دكتور جيكل وسيماؤه تفصح عن عياء مرضٍ شديد الوطأة؛ فما نهضَ كي يستقبلَ زائره، وإنما مدَّ صوبه يداً باردة مبدياً ترحابَهُ و قد تغيَّرت نبرتُه.

"والآن"، قال مستر آترسون حالما غادرهما بول، "قد سمعتَ الأنباء؟"

ارتعد الطبيب. "كانوا يتصايحون بها في الساحة"، قال. "تناهتِ الجلبةُ إليّ في غرفة طعامي".

"كلمة واحدة"، قال المحامي. "كان كارو موكّلي، وكذلك أنت؛ وإني أريدُ أن أعرفَ ما سأصنعه؛ لم يبلغْ بك الجنون حداً تخبّئ معه صاحبك هذا؟"

"آترسون، قسماً بالله"، صاح الطبيب، " قسماً بالله لن تلاقيه عيناي أبداً مرة أخرى. أتعهّدُ لك بشرفي إني فارقتُه في هذا العالم. لقد انتهى كلُّ شيء. إنه حقاً لا يلتمسُ منّي أيَّ عَوْن؛ فأنت لا تعرفه مثلي؛ إنه في مأمنٍ حصين. ولتحفظْ كلماتي هذه: من الآن فصاعداً لن يسمعَ به أحد أبداً".

أنصتَ المحامي واجماً؛ لم ترُقْ له طريقةُ صديقه المحمومة. "تبدو ثقتك به كبيرة"؛ قال، "ولأجلك، آمل أن تكون على حق. فإذا بلغت القضيةُ حدَّ المحاكمة، قد يظهرُ اسمك على الملأ".

"إني على ثقةٍ تامة به"، أجاب جيكل؛ "ولديّ لهذا اليقين أسسٌ لا أستطيعُ إطلاعَ أحد عليها. لكن ثمة شيء واحد ألتمسُ منك النصحَ فيه. لقد ـ لقد تلقّيتُ رسالة؛ وأنا في حيرةٍ من أمري فيما إذا يتوجّب عليّ تقديمُها إلى الشرطة. لكني آثرتُ أن أودعها بين يديك، آترسون؛ فإني موقنٌ من رجاحةِ حُكمك؛ إن ثقتي بك عظيمة للغاية".

"أحسبك تخشى أن تفضيَ هذه الرسالة بالشرطة إلى اقتفاءِ أثره؟ " استوضح المحامي.

"كلا"، قال الآخر." إني عاجز عن قولِ إني أعبأ بما سيؤول إليه هايد؛ فقد انقطعت بيننا كلُّ آصرة. كنتُ أفكر بشخصي أنا، شخصي الذي أودَتْ به هذه القضيةُ المقيتة إلى الفضائح".

تملى آترسون لهنيهة ما قيل؛ فقد تملّكته الدهشةُ، برغم الراحة التي اكتنفته، إزاء أنانية صديقه. "حسناً"، قال أخيراً، "فلتطلعني على الرسالة".

كانت الرسالة مدوَّنة بخط شاقوليّ غريب، مذيّلةً بإمضاء "إدوارد هايد": وقد أشارت، بإيجازٍ وافٍ، إن المُحْسِنَ إليه ـ أي دكتور جيكل ـ الذي طالما رَدَّ له الجميلُ

مشفوعاً بالجحود لقاءَ ألف مكرمةٍ أجزلَ العطاءَ فيها، ليس مضطراً كي يشقى تحت وطأة خطرٍ داهم يتهدّدُ استتبابه، فهو يحوزُ وسائلَ للنجاة تكفلُ له السلامة التامة.

لقد أحبَّ المحامي هذه الرسالة حباً جماً، فقد أضفَتْ على الألفة مسحةً من المودّة تفوق ما كان يصبو إليه، ولامَ نفسه على بعضٍ من شكوكه الماضية.

"هل المغلّف معك؟" سأله.

"لقد أحرقته"، أجابه جيكل، "قبل أن أحاطَ علماً بما انطوت عليه الرسالة. لكنه لم يكنْ يحمل أيَّ طابع بريديّ. لأنني استلمتُه باليد".

"أعليَّ الاحتفاظُ بهذه وأنام عنها؟" استفسر آترسون.

"أمنيتي أن تنوبَ عني في الحكم نهائياً"، كانت الإجابة. "لقد فقدتُ الثقة بنفسي".

"حسناً، سأنظرُ في الأمر"، ردّ المحامي. "والآن اسمحْ لي بكلمةٍ أخرى: هل كان هايد هو مَنْ أملى بنودَ وصيتك المتعلقة بذاك الاختفاء؟"

بدت سيماءُ الطبيب كمن غشَتْهُ نوبةٌ من الغثيان؛ فأطبقَ فمه محكماً وهزّ برأسه.

"كنت أعرف"، قال آترسون. "كان يبيّتُ لقتلك. وها قد ظفرتَ بمنجىً باهر".

"لقد جنيتُ ما يفوقُ هذه الغاية بكثير"، ردَّ الطبيب في وجومٍ جليّ. "لقد لُقّنتُ درساً - ربّاه، يا آترسون، ويا له من درس!"، وللحظةٍ غطّى وجهَهُ بيديه.

وإثر خروجه، توقف المحامي وتبادل مع بول كلمة أو اثنتين. "بالمناسبة"، قال، "لقد وصلت اليوم رسالةٌ: فكيف كان مظهرُ الرسول؟"، لكن بول ألحَّ إنهم لم يستلموا شيئاً إلا بالبريد؛ وأردف قائلاً: "ولا شيء البتة سوى المنشورات المعتادة".

حيَّر هذا النبأ الزائرَ وقد تجدّدتْ مخاوفه. لا يخفى إن الرسالة قد وصلت إلى باب المختبر؛ و ليس مستبعَداً، في الواقع، أن تكون قد كُتبَتْ في المكتب؛ وإذا ما كان الأمر قد جرى على هذا النحو، فيجب الحكمُ بطريقةٍ مختلفة وتوخّي المزيد من الحذر. ولدى مروره، كان باعةُ الجرائد الصغار يتصايحون بحناجرهم المبحوحة على الأرصفة المترامية: "عدد خاص. جريمة قتل مروعة لنائب في البرلمان". كانت تلك الألفاظُ هي خطبة جنازة صديقه وموكله؛ وما استطاع أن يبعد توجساً استبد به خشيةَ أن تبتلعَ دوامةُ هذه الفضيحة الصيتَ الطيب لصديق آخر. كان عليه، في الأقل، أن يعقدَ عزمه و يبتَّ في قرارٍ دَقيق يمضُّه؛ ورغم إنه بطبعه لا يعتمدُ إلا على

نفسه، فقد أمسى يهفو، كاتماً توقَهُ، لرأي يستنصحُ به. وما كان له أنْ يحظى بهذه النصيحةِ مباشرة، وإنما عليه، كما فكّر، أن يتصيّدها على الأرجح.

وبعد قليل، جلس إلى جوار موقده، برفقة مستر غست، موظفه الرئيس، الجالس إلى الجانب الآخر و بينهما، في المنتصف، على مبعدةٍ محسوبة ولطيفة من النار، زجاجةُ نبيذ فاخر معتّق ثوَت طويلاً بمعزلٍ عن ضياء الشمس في أقبية دارته. ما انفكّ الضبابُ غافياً بأجنحته فوق المدينة الغارقة حيث تتلألأ القناديلُ كالجمر؛ وعبر الغمامات الخفيضة، البكماء والخانقة هذه، كان موكبُ حياة المدينة لا يزال يجري في عروقِ الشوارعِ الكبرى، باثاً جلبةً أشبه بعويلِ ريحٍ عتيّة. بيد أن الحجرة كانت جَذْلى في وهجِ النار. و في الزجاجة كانت الأحماضُ قد زايلت النبيذ منذ أمد بعيد؛ ورقّقَ الوقتُ بمروره نعومةَ اللون الملوكيّ القاني كما يثرى اللونُ في بللورِ النوافذ المعشّق؛ وكان وهجُ ظهيرات الخريف القائظة فيْ الكرومِ المبثوثة على حفافي التلال يتأهّبُ لإطلاقِ سراحه فتتبدّدَ به ضباباتُ لندن. انشرح المحامي من تلقائه. فما من رجلٍ آخر عدا مستر غست ليكتمَ عنه قلّةً من أسراره؛ وما كان على الدوام متيقّناً حتى من كتمانِ هذه الأسرار القليلة التي يمتنعُ عن إفشائها. لطالما ارتبط غست مع الطبيب بعلاقات عمل؛ كما كان على معرفةٍ ببول؛ ولا يُعقل أن الحضورَ المألوف لمستر هايد في أرجاء الدار لم يبلغ مسامعه؛ ولربما استقى استنتاجاتٍ خاصة: أفلا يجدرُ إذن أن يطّلعَ على رسالةٍ ستضعُ حدّ الصواب لذلك اللغز؟ وفوق كلّ شيء، هل سيعتبرُ غست، وهو الناقدُ الفطِنُ والدارسُ الحاذق لخطّ اليد، هذه الخطوةَ طبيعيةً و مُجدية؟ كما أن الرجل، فضلاً عما سبق، رجلٌ تُؤْخَذُ بمشورته؛ وقلما يقرأ وثيقةً غريبة إلى هذا الحدّ بدون إبداء أية ملاحظة؛ ولربما استهدى مستر آترسون بذاك الرأي كي يصوغَ مسارَهُ المقبل.

"إنها لمأساةٌ مفجعة ما جرى للسير دانفرز"، قال.

"أجل، حقاً سيدي. لقد استعرَ بسببها سخطٌ عظيم بين الناس"، ردّ غست. "كان الرجل، بالطبع، مجنوناً".

"إني لأودُّ أن أستمعَ إلى آرائك بهذا الصدد"، أجاب آترسون. "لديَّ هنا وثيقةٌ دُوِّنت بخطّ يده؛ والحديث بيننا نحن الاثنين، لأني أكاد لا أدري ما أنا صانعٌ بها؛ إنها جريمةٌ شنيعة إلى أقصى حدّ. لكن، هي ذي الوثيقةُ تعترضُ طريقك: إمضاءُ قاتل".

شعّتْ عينا غست، فاقتعدَ الكرسيَّ من فوره، وراحَ يتفحّصُ الرسالةَ ملهوفاً. "كلا يا سيدي"، قال، "ليس مجنوناً. هذه يدٌ غريبة ".

"والكاتبُ، بكل المقاييس، أطواره في منتهى الغرابة"، أردف المحامي.

وآنئذ تماماً دلفَ الخادم وبيده رسالة.

"هل هي من دكتور جيكل، سيدي؟" استفسر غست. "أحسب إني أعرف هذا الخطّ. هل من شيءٍ خصوصيّ، مستر آترسون؟"

"إنها دعوةٌ للعشاء وحسب. لماذا؟ أترغبُ برؤيتها؟"

"لحظة واحدة. أشكرك، سيدي"، و فَرَدَ الموظفُ كلتا الورقتين إحداهما بمحاذاة الأخرى، وقارنَ بين محتويات كلتيهما عن كثب. "أشكرك، سيدي"، قال أخيراً، معيداً الرسالتين إليه؛ "إنه إمضاءٌ مثير للغاية".

ثم رانَ صمتٌ وجيز اعتمل خلاله الصراعُ في قرارةِ آترسون. "لِمَ قارنتَ بينهما، غست؟" استفسر بغتةً.

"حسناً، يا سيدي"، ردّ الموظف، "ثمة تشابهٌ جمّ؛ فاليدان متطابقتان في نقاط عديدة؛ وما من فَرْقٍ بينهما سوى في مَيَلانِ الخطّ".

"غريب قليلاً"، قال آترسون.

"حقاً، كما قلتَ، غريب قليلاً"، ردَّ غست.

"لن أتكلمَ لأحد عن هذه المذكرة، كما تعرف"، قال الأستاذ.

"كلا، سيدي"، قال الموظف، "أنا أتفهّم الوضع".

وحالما اختلى مستر آترسون بنفسه تلك الليلة، حتى سارعَ ليوصدَ على الرسالة في قلبِ خزانته حيث توارتْ مذاك الوقت فصاعداً. "ماذا!"، فكّر، "هنري جيكل يزوّرُ ليتستّرَ على قاتل!"، وجرى دمُهُ بارداً في عروقه.

الحادثة اللافتة للدكتور لانيون

ومرّ الوقت؛ أُعلِنَ عن مكافأة تقدَّر بآلاف الجنيهات، لأن موت السير دانفرز اعتُبر خسارة عامة؛ ولكن مستر هايد توارى عن أنظار الشرطة وكأنه لم يوجدْ من قبل قط. ثم أُميطَ الغطاءُ لاحقاً عن جُلِّ ماضيه، وكان برمته مخزياً: تواردت الحكايات عن وقاحة الرجل، الرعونةُ والشراسةُ في آن، وعن حياته الوضيعة وخُلَطاء السوء الذين يُعاشرهم والبغضاء التي تبدو كأنها تكتنفُ مجملَ سيرته؛ أما بقاعُ تواجده الراهنة فما من نأمةٍ ليُسْترشدَ بها. منذ صبيحة الجريمة، حين غادر المنزل في سوهو، امّحى ببساطة؛ ورويداً رويداً، كلما انصرمت الأيّام، بدأ مستر آترسون يتعافى من حمّى هلعه، ويتماثلُ للمزيد من الهدوء مع نفسه. لكن موت سير دانفرز، بالنسبة إلى نهجه في التفكير، مُصابٌ لم يعوّضْ عنه اختفاءُ مستر هايد. والآن، مع انحسار ذاك الأثر الشرير، تفتّحت حياةٌ جديدة بالنسبة للدكتور جيكل. خرج من عزلته، وجدّدَ العلاقات التي ربطته بأصدقائه، وألفى مرةً أخرى المضيفَ الحميم المروّحَ عنهم؛ ولمّا كان على الدوام معروفاً بالإحسان فقد اتّسم الآن، على نحوٍ لا يقلّ عما مضى، بميلِهِ إلى التديُّن. كان كثيرَ المشاغل، يُمضي جلَّ وقته في الهواء الطلق ويجودُ بالخير؛ وبدا وجهه يشرقُ ويتفتّح، كأنه مشحونٌ بوعي داخليّ تجاه خدمة الناس؛ ولأكثر من شهرين ظلّ الطبيبُ مطمئنَّ البال.

في الثامن من كانون الثاني، تعشّى مستر آترسون عند الطبيب مع قلّةٍ من المدعوّين؛ وكان لانيون حاضراً هناك؛ وجْهُ الطبيب يتنقّل من أحدهما إلى الآخر مثلما

كان في سالفِ الأيام آنَ كانوا ثلاثتهم أصدقاء لا ينفصلون. في الثاني عشر من كانون الثاني، ومرة أخرى في الرابع عشر منه، كان الباب مغلقاً في وجه المحامي. "الدكتور يلزمُ المنزل"، قال بول، "ولم يرَ أحداً". وفي اليوم الخامس عشر، حاول من جديد وقُوبِلَ بالرفض مرة أخرى؛ ونظراً لاعتياده الآن طوال الشهرين المنصرمين على رؤية صديقه كلّ يوم تقريباً، فقد وجدَ هذه العودةَ إلى العزلة تثقلُ على معنوياته. فدعا غست في الليلة الخامسة كي يتناولَ العشاء معه؛ وفي الليلة السادسة قصدَ دكتور لانيون.

هناك، على الأقل، لن يُحظرَ عليه الدخولُ؛ بيد أنه، ولدى دخوله، هالَهُ التبدّلُ الذي اعترى سيماءَ الطبيب. كان نذيرُ موته الوشيك مكتوباً فوق وجهه، جليّاً. الرجلُ المتورِّد امتقعَتْ سحنته؛ ذوى لحمُه، ولا يخفى كم أمسى أصلعَ ومسناً أكثر من ذي قبل؛ وما كانت هذه العلائمُ على هُزالٍ جسديّ سريع هي التي راعَتْ انتباهَ المحامي، بقدرِ ما استوقفَتْهُ النظرةُ في العين ونوعية مسلكه اللتين تشيران، كما يبدو، إلى ذعرٍ مُحْدقٍ يقبعُ عميقاً في قرارةِ العقل. ما كان السببُ، على الأرجح، أنّ الطبيبَ يخشى الموت؛ وإنْ كان ذاكَ الاحتمالُ هو ما أغوى آترسون بافتراضه. "أجل"، فكّر؛ "إنه طبيب، ولا بد إنه يحيطُ علماً بحالته الخاصة، وبأن أيامَهُ معدودات؛ وهذا العلمُ يفوقُ طاقتَهُ على التحمُّل". ولكن عندما نوّهَ آترسون بالسقَمِ الذي يعتري سيماءه، جاهرَ لانيون، في جوٍّ من يقينٍ عظيم، بأنه رجلٌ ملعون.

"أنا منكوب"، قال، " ولن أبرأ من هذه النكبة أبداً. إنها مسألة أسابيع وحسب. حسناً. لقد كانت الحياةُ ممتعة؛ عشقتُها؛ بلى،سيدي، اعتدتُ أن أعشقها. ويخطرُ لي في بعض الأحايين أنه لو عرفنا كلَّ شيء لآثرنا، ونحن مغتبطون، أن ننأى بأنفسنا بعيداً".

"جيكل مريضٌ أيضاً". عقّبَ آترسون. "فهل رأيتَه؟"

امتقعَ وجهُ لانيون، ورفعَ عالياً يدَهُ الراجفة. "لا أريد أن أرى أو أسمعَ شيئاً عن دكتور جيكل"، قال في نبرة محتدّة متلجلجة. "لقد انتهى كلُّ شيء بيني وبين ذاك الشخص؛ ورجائي أن تُعفيني حتى من مجردِ التلميحِ إلى امرىء أحسبَهُ في عداد الأموات".

"عجباً، عجباً"، قال مستر آترسون؛ ثم أردفَ بعد برهة صمت مديدة، "أليس

بوسعي القيامُ بأيِّ شيء؟" استفسر. "نحنُ الثلاثة أصدقاء قدامى، لانيون؛ ولن تسعفَنا الحياة كي ننشيءَ صداقات أخرى".

"لا يمكنُ القيامُ بأيِّ شيء". ردَّ لانيون؛ " اسألْهُ هو

"إنه لا يريدُ رؤيتي"، قال المحامي.

"لستُ مندهشاً مما قلتَ"، كان الجواب. "يوماً ما، آترسون، بعد موتي، قد يتسنّى لك أن تفرّقَ خطأ هذه المسألة عن صوابها. لا أستطيعُ أن أخبرك. وفي هذه الآونة، لو استطعتَ، اجلسْ وحدّثني عن أشياء أخرى حبّاً بالله؛ اجلسْ وقُمْ بما رجوتُه منك؛ أما إذا لم تستطعْ أن تُخلي بالك من هذا الموضوعِ المشؤوم، فاذهبْ، أستحلفُك بالله، لأني لا أطيقُه".

ما إن وصل آترسون إلى البيت جلس وكتب إلى جيكل شاكياً منعَهُ من دخول منزله، ومستوضحاً سببَ هذه القطيعةِ المؤسفة مع لانيون؛ وأتاه اليوم التالي بجواب مستفيض، دُقّقَ غالباً في انتقاء مفرداته الشجيّة، ويكتنفُ تفاصيله أحياناً غموضٌ قاتم. لا سبيلَ لرأبِ الصدعِ مع لانيون. "لستُ ألومُ صديقَنا القديم"، كتب جيكل، "لكنني أشاطرُهُ الرأي بوجوبِ ألاّ نلتقي أبداً. في نيتي، من الآن فصاعداً، أن أكرّس حياتي للعزلة الخالصة؛ لا تندهشنَّ مما أقول، ولا تشكّكنّ بصداقتي إذا كثُرتْ مصادفةُ بابي مغلقاً، حتى دونك أنت. فاتركْني، إذن؛ أسيرُ في حلكةِ الدربِ الذي شنتُه لنفسي. لقد جررْتُ على نفسي خطراً وقصاصاً أنا عاجزٌ عن تسميتهما. إذا كنتُ كبيرَ الخُطاة، فإني كبيرُ المعذَّبين أيضاً. وليس بمستطاعي أن أحسبَ هذه الأرض قد انضوَتْ يوماً على مكانٍ لمثل هذا الذعرِ والعذاباتِ والأهوال؛ وبوسعك الاضطلاعُ بشيءٍ واحد فقط، آترسون، كي تخفّفَ عنّي هذا المصير، ألا وهو أن تحترمَ صمتي". كان آترسون مشدوهاً؛ فقد انحسرَ الأثرُ القاتم الذي خلّفه هايد، واستأنفَ الطبيبُ واجباته وصداقاته القديمة؛ وفي الأسبوعِ المنصرم، ابتسمَ له الرجاءُ مفتراًّ عن كلِّ وعدٍ يُمنّي بشيخوخةٍ ترفلُ بالنعمى والغبطة؛ والآن، في لحظة، الصداقةُ و طمأنينةُ البال ومغزى حياته برمّتها استحالت أنقاضاً. ويا لهُ من تبدُّلٍ عظيم لم يحتَطْ له يومئ صوب الجنون؛ لكن، وعلى ضوءِ كلماتِ لانيون وتصرُّفه، لا بد من وجود أسسٍ أعمقَ لهذا التبدّل.

وبعد أسبوع من ذاك اللقاء، لازمَ دكتور لانيون سريرَهُ، وفي غضونِ أسبوعين أو أقلّ أدركتْهُ المنية. في الليلة التي أعقبتِ الجنازةَ التي اعتصر فيها الحزنُ فؤاده،

أقفل آترسون بابَ غرفة عمله، وجالساً هناك، عند ذؤابة شمعة تبثُّ الكآبة، سحبَ درجاً، ووضع أمامه مغلّفاً ممهوراً بختمِ صديقه الميت ومعنوناً بخطّ يده. "خاص: تصل إلى يد ج.غ. آترسون **وحده**؛ وإذا استبقني إليه الموتُ، ***فلتُتلفْ بدون أن تُقرأ***". هكذا أكدت الحروفُ المائلةُ المطبوعة؛ وارتاعَ المحامي أن يبصرَ المكنونات. "اليومَ، واريتُ الثرى صديقاً"، فكّر: "فماذا لو كلّفتني هذه الرسالةُ صديقاً آخر؟" وآنئذ استهجنَ الخوفَ وارتآه ضرباً من الخيانة، فافتضَّ الختم. عثر على رسالة أخرى، مختومةٍ كمثل سابقتها، وعلى غلافها دُوِّنت هذه العبارة: "لا تُفتَحُ إلا بعد ممات دكتور جيكل أو اختفائه". لم يستطعْ آترسون أن يصدّقَ عينيه. أجل، إنها كلمةَ "اختفاء"؛ وها هي ذي هنا مرة أخرى، كما في الوصية المجنونة التي ردّها إلى صاحبها منذ أمدٍ بعيد؛ هي ذي مرة أخرى فكرةُ الاختفاء، إلى جانب اسمِ هنري جيكل منصوصاً عليه بين قوسين صغيرين: لكن الفكرة، في الوصية، قد انبثقتْ من خضمِّ توعُّدات ذاك الرجل هايد؛ وقد أُدرِجَتْ طيَّها والغايةُ منها مفزعةٌ وفي منتهى الوضوح. فما الذي تعنيه هذه المفردةُ، مكتوبةً بيد لانيون؟ استبدّ بالمؤتَمن فضولٌ عارم كي يغضيَ عن هذا التحريم ويغوصَ من فوره إلى قاعِ هذه الألغاز؛ لكنّ شرفَهُ المهنيّ و إخلاصَهُ لصديقه المتوفّى كانا مانعَين قاطعين؛ ورقدتْ رزمةُ الأوراقِ تلك في أقصى زاويةٍ من خزينته الخاصة.

إماتةُ الفضولِ غيرُ التغلُّب عليه؛ فلربما ثارتِ الشكوك، منذ ذلك اليوم، و قيلَ إن شهوةَ آترسون تلهّفت بالمقدار ذاته إلى ميراثِ صديقه الناجي. فكّر به بعطف؛ لكن هواجسه استحوذها الخوفُ والاضطراب. مضى، حقاً، ليزوره؛ فربما هدأ من روعه إنْ لم يُؤْذَنْ له بالدخول؛ وربما آثر، في قرارةِ قلبه، أن يتحدّثَ مع بول على عتبةِ الباب،محاطاً بجوّ المدينة الرحبة وضوضائها، آثرَهُ على أن يُؤذنَ له بولوجِ ذاك المنزلِ المسخَّر لعبوديةٍ طوعيّة فيجلسَ ويكلّم ناسكَها المُبهم.لم يكن بحوزةِ بول، في الواقع، أيةُ أنباء سارّة كي يزفّها إليه. فقد تبيّن أن الطبيبَ قد حبسَ نفسه الآن، أكثر من أيَ وقتٍ مضى، معتصماً في غرفةِ مكتبه التي تعلو المختبر، حيث يُنفقُ وقته هناك، و ينام أحياناً؛ قد ولّتْ حيويته، وبات مستغرقاً في صمته، وما عاد يقرأ؛ كأنّ شيئاً ما يكدّرُ ذهنه. وقد اعتاد آترسون على الشخصية التي لا تتبدّل كما ترسمُها هذه الأخبارُ المنقولة، حتى إنه شيئاً فشيئاً قلّلَ من وتيرةِ زياراته.

حادثة النافذة

عندما كان مستر آترسون برفقة مستر إنفيلد في نزهته المعتادة يوم الأحد، شاءت المصادفةُ أن تقودَهما الطريق مرة أخرى عبر الشارع الجانبي؛ ولمّا انتهى بهما المطاف قدّام الباب وقفا يتمليّانه.

"حسناً"، قال إنفيلد، "قد انتهت تلك القصة على الأقل. لن نرى أبداً المزيد من مستر هايد".

"آملُ ألا نراه"، قال آترسون، "ألم أخبرك من قبل بأني رأيتُه ذات مرة، وشاطرتُك الإحساسَ بالاشمئزاز منه؟"

"محالٌ أن تلمحَهُ بدون أن تشمئزَّ منه"، أجابه إنفيلد. "والشيءُ بالشيء يُذكر. فقد حسبتَني مغفَّلاً، وأيُّ مغفّل، لأني لم أكن أدري إن هذا الرجلَ كان طريقاً خلفياً يفضي إلى دكتور جيكل! كانت هذه جزئياً غلطتَكَ أنت، وأنا اكتشفتُها عندما أدركتُ الحقيقة".

"هكذا إذن، اكتشفتَها، أليس كذلك؟" قال آترسون. "لكن، إن كان الأمر كما تزعم، فلنَخْطُ إلى داخل الفناء ونُلْقِ نظرةً على النوافذ. ولأقُلْ لك الحقيقة، إني قلقٌ من أجل المسكين جيكل؛ وأشعرُ بأن حضورَ صديقٍ،حتى هنا في الخارج، قد ينفعُه".

كان الفناء قارس البرودة ورطباً قليلاً، مفعماً بغَسقٍ هبطَ قُبيل أوانه، مع أن السماءَ، عالياً فوق الهامات، ما تزال تسطع بغروبِ الشمس. كانت النافذةُ الوسطى بين النوافذِ الثلاث مفتوحةً مواربة؛ وقريباً إلى جوارها، جالساً يتنسّمُ الهواء وسيماؤهُ

تنضحُ حزناً لا قرارَ له كمثلِ سجينٍ لا يُتعزّى، رأى آترسون دكتور جيكل.

"ماذا! جيكل!" صاحَ. "أنا واثقٌ بأنك قد تحسّنت".

"أنا محبَطٌ للغاية، آترسون،" جاءه جوابُ الطبيب مستوحشاً. "محبطٌ للغاية. لن تطولَ بي الحالُ هكذا، حمداً لله".

"أنت تمضي جُلّ وقتك داخل البيت"،قال المحامي. "عليك بالخروج، فيدفقَ الدمُ في عروقك مثلي ومثل مستر إنفيلد (هذا ابنُ عمي مستر إنفيلد، دكتور جيكل). هلمَّ بنا الآن؛ اعتمرْ قبعتك وطُفْ معنا في تجوالنا العَجُول".

"يا لطيبتك"، تنهّد الآخر. "إني أتطلّعُ متشوّقاً للخروج؛ لكن كلا، كلا، كلا. هذا مُحال تماماً؛ لا أجرؤ. لكني حقاً، مسرورٌ جداً برؤيتك، آترسون؛ إنها لسعادةٌ عظيمة حقاً. كنت سأرجوكما أنت و مستر إنفيلد كي تصعدا؛ لولا المكان الذي، في الواقع، لا يليقُ بكما".

"ولماذا"، قال المحامي بطيبتهِ المعهودة. "خيرُ ما نستطيعُ القيامَ به هو المكوثُ هنا، تحت، و محادثتك من حيث نحن واقفان".

"هو ذا بالضبط ما كدتُ أجازفُ باقتراحه عليكما". ردَّ الطبيب وافترَّ ثغره. كأنما نُطقَت الكلماتُ بمشقّة، قبيل أن تزولَ الابتسامةُ عن وجهه ليعقبها تعبيرٌ في غاية القَنوطِ والذعر جمَّدَ الدم في عروق السيدين الواقفين تحت. ولم يلمحا هذا التعبير إلا خطفاً، إذْ سرعان ما تمّ إيصادُ النافذة، لكن تلك اللمحة تكفّلتْ بأن يستديرا على أعقابهما ويغادرا الفناء دون أن ينبسا ببنتِ شفة. جاوزا الشارعَ الفرعيّ والصمتُ يلفُّهما؛ وما إن بلغا الشارعَ العام المجاور فوجاه حيث ما تزال هناك، حتى في يومٍ من أيام الآحاد، حركةٌ تضجُّ بالقليلِ من الحياة، حتى التفتَ مستر آترسون و نظرَ إلى صاحبهِ أخيراً. كان كلاهما شاحبَ الوجه، وفي أعينهما ثمة ذعرٌ مجيب.

"غفرانَكَ، يا رب! غفرانك، يا ربّ!" قال مستر آترسون.

غير أن مستر إنفيلد اكتفى بهزّ رأسهِ جاداً، أيّما جدية، وواصلَ سيرهُ صامتاً مرة أخرى.

الليلة الأخيرة

كان مستر آترسون جالساً إلى جوارِ موقدهِ بعد العشاء عندما فاجأته ذاك المساء زيارةٌ من بول.

"رباه، بول، ما يحدوك إلى هنا؟" صاح به؛ ثم بادره متفحّصاً إياه بنظرة أخرى، "ماذا ألمَّ بك؟ "أردف؛ "هل الدكتور مريض؟"

"مستر آترسون" قال الرجل، "ثمة شيءُ خطير ".

"اجلسْ؛ هو ذا قدحُ نبيذٍ لأجلك"، قال المحامي. "الآن خُذ وقتك. استرحْ ثم صارحني بما تريد".

"أنت على درايةٍ بأساليبِ الدكتور، سيدي". أجاب بول، "وكيف يسجنُ نفسه فوق. حسناً، لقد أغلق البابَ على نفسه مرة أخرى في مكتبه؛ ولستُ أحبُّ هذا الطبعَ فيه، سيدي، ليتني أقضي لو أحببتُ هذا. مستر آترسون،سيدي، أنا خائف".

"الآن، أيها الرجلُ الطيب"، قال المحامي، "كُنْ صريحاً. ممَّ تخاف،؟"

"أنا خائف منذ أسبوعٍ تقريباً"، ردّ بول، مُداهِناً في تفادي السؤال، "ما عادتْ بي طاقةٌ على الاحتمال".

أغدقَتْ تقاطيعُ الرجل بمؤازرتِها لكلماته؛ وتدهورت حالتهُ نحو الأسوأ؛ وباستثناء اللحظةِ التي بدأ فيها بالتصريحِ عن ذعره، فإنه لم ينظر للمحامي في وجهه ولا مرةً واحدة. وإلى الآن كان جالساً وعلى ركبتهِ قدحُ النبيذ لم يذُقْه، وعينُهُ مصوّبةٌ على زاويةٍ من الأرضية وهو يكرّر، "ما عادتْ بي طاقةٌ على الاحتمال".

"هوّن عليك"، قال المحامي، "أرى أنّ لديك سبباً جدياً يا بول؛ كما أرى خطأ فادحاً يلوح. حاولْ أنْ تخبرني ما هوَ".

"أعتقد أن هناك لعبة قذرة". دمدمَ بول، بنبرةٍ جشّاء.

"لعبة قذرة!" صاح المحامي، مرتعباً بعض الشيء، مما جعله يجنحُ بالتالي إلى الاستفزاز. "أية لعبة قذرة؟ ماذا تقصد يا رجل؟"

" لا أجسرُ على الجَهْرِ بما في نفسي، سيدي"، كان الجواب،" لكن، هلاّ رافقتني كي ترى بنفسك؟"

كان جوابُ مستر آترسون الوحيد هو أن نهضَ ليعتمرَ قبعته ويرتدي معطفه الكبير؛ لكنه لاحظَ مستغرباً الارتياحَ العميم الذي انفرجَتْ به أساريرُ كبيرِ الخدم، ولربما ازدادَ استغرابهُ حين رأى قدحَ النبيذ الذي لم يُمسّ عندما وضعَهُ بول على المائدة كي يلحقَ به.

كانت ليلةً من ليالي آذار بقسوة زمهريرها المعهود، ينيرها قمرٌ شاحب مستلقٍ على ظهره كأن الريحَ قد أمالَتْهُ لتؤرجحَه، ويغشاهُ طافياً ضبابٌ رقيقُ الملمس شفيفُه. جعلت الريحُ الحديثَ عسيراً، وحقنت الوجوهَ بالدماء. كما كنست الشوارع أيضاً مُخليةً إيَاها من السابلة إخلاءً غريباً؛ ولهذا فكر مستر آترسون بأنه لم يرَ قطُّ ذاك القسمَ من لندن مهجوراً إلى هذا الحدّ. و لربما تمنّى المدينة على نحوٍ آخر؛ لم يسبقْ له طوال حياته أن وعى أمنيةً بهذه الحدّة كي يرى ويلمسَ المخلوقاتِ أقرانَه؛ وفطنَ إذاك إلى إحساسٍ ساحق ارتسمَ في عقلِه يُنذرهُ بكارثةٍ محدقة. كانت الساحةُ، عندما ولجاها، تعجُّ بالريح والغبار؛ والأشجارُ الهزيلة في الحديقة تسوطُ الأفاريزَ بأماليدها. بول الذي ظلّ طوال الطريق يتقدّمُ المحامي بخطوةٍ أو اثنتين، توقّفَ الآن في منتصف الرصيف، وبالرغم من الطقسِ اللاسع خلعَ قبّعته ومسّدَ حاجبيه بمنديل جيب أحمر اللون. لكنّه، وإن استعجلَ القدومَ حثيثاً، لم يكن ما مسحَهُ بالمنديل عرقاً يتفصّدُ بالإنهاك بل نداوةَ قلقٍ خانق؛ فقد ابيضَّ وجهه، وكان صوتُه، إذْ تكلّم، أجشَّ متهدّجاً.

"حسناً، سيدي"، قال، "ها قد وصلنا، وأدعو الله ألا نصادفَ أيَّ مكروه".

"آمين، بول،" قال المحامي.

وعندئذ طرقَ الخادمُ الباب، متوخّياً الحذرَ الشديد؛ فانشقَّ الباب المُرتج بسلسلةٍ وساءله من الداخل صوتٌ يقول: "أهذا أنتَ، يا بول؟"

"كلُّ شيء على ما يُرام". قال بول." افتحِ الباب".

كانت الإنارةُ ساطعةً في البهو الذي دلفا إليه، النارُ تضطرم عالياً، ومن حولِ المُصْطلى كان طاقمُ الخدم بأسره، رجالاً ونساء، واقفين متجمهرين سوياً كقطيعٍ من الأغنام. انفجرتِ الخادمةُ في نُواحٍ هستيريّ لما رأت مستر آترسون؛ وعلت عقيرةُ الطاهية "بركتك يا الله! هذا مستر آترسون!" وهرولتْ صوبه كأنها ستحضنُهُ بذراعيها.

"ماذا، ماذا؟ أأنتم جميعاً هُنا؟" قال المحامي، بَرِماً. "فوضى كبرى. ليس هذا لائقاً البتة: لن يُسعدَ سيدكم أبداً بما سيراه".

"كلهم خائفون"، قال بول.

وأعقبه صمتٌ مطبق لم تبدُرْ فيه عن أحدٍ نأمةٌ سوى الخادمة التي رفعت صوتها وأجهشت الآن عالياً.

"أمسكي لسانك!" زجرَها بول بنبرةٍ شرسة كشفتْ عن أعصابه المشدودة؛ والواقع، عندما شرعت الفتاة على حين غرة تعلي وتيرةَ نواحها، أجفلَ الجميع والتفتوا إلى الباب الداخلي بوجوهٍ مترعةٍ بترقُّبِ شيءٍ فظيع. "والآن"، استكملَ كبيرُ الخدم، مخاطباً الصبيَّ شاحذ السكاكين، "جئني بشمعة، وسننهي هذه المسألة بأيدينا في الحال". ثم التمس من مستر آترسون أن يتبعه، ليقوده عبر الممرّ المفضي إلى الحديقة الخلفية.

"والآن، سيدي،" قال، "اتبعني خفيفَ الخطو قدرَ ما استطعتَ. أريدك أن تَسمعَ ولا أريدك أن تُسمَعَ. وانظر هنا سيدي، بأيةِ حال إذا ما دعاك إلى الدخول فلا تُجِبْهُ الدعوة".

اقشعرَّت أعصابُ مستر آترسون عند سماعه هذه النهايةَ غير المنتظرة للعبارة، قشعريرةٌ كادت تودي به وتخرجهُ عن طوره؛ لكنه عادَ واستجمعَ شجاعته، واقتفى كبيرَ الخدم إلى مبنى المختبر، واجتازا المشرحةَ التي اكتظَّت بسقط المتاع من قوارير وزجاجات، وانتهيا عند قدم السلم. وهنا أوعزَ بول للمحامي كي يتنحّى ويصيخَ السمع؛ بينما هو، واضعاً الشمعة على السلم مزمعاً على النداء بصوتٍ واضح ومدوٍّ، ارتقى الأدراج وبيدٍ تعوزُها الثقة طرَقَ على القماش الأحمر لباب المكتب.

"سيدي، مستر آترسون يسأل رؤيتك"؛ ولمّا نادى هكذا أشارَ للمحامي يستحثهُ مرة أخرى كي يرهفَ سمعه.

جاوبَهُ من الداخل صوتٌ يتشكّى: "قُلْ له إني لا أستطيعُ أن أرى أحداً".

"شكراً لك، سيدي"، قال بول، ونبرةُ المنتصرِ تشوبُ صوته؛ ثم رفَعَ شمعته وتقدّمَ مستر آترسون، عائداً به عبر الفناء ليدلفا المطبخَ الكبير، حيث خمدتِ النار والخنافسُ تتقافزُ على الأرضية.

"سيدي"، قال ناظراً مستر آترسون في عينيه، "هل كان ذاك صوتَ معلّمي؟"

"يبدو أنه قد تغيّرَ كثيراً"، أجاب المحامي ممتقعَ الوجه،و لكن مبادلاً النظرةَ بالنظرة.

"تغيّر؟ حسناً، نعم، أعتقد ذلك"، قال كبيرُ الخدم. " هل أمضيتُ في منزلِ هذا الرجل عشرين سنة كي أُضلَّ عن صوته؟ كلا، سيدي، لقد قُضي على معلمي في السرّ؛ قُضي عليه منذ ثمانية أيام، عندما تناهى إلى مسامعنا صياحُهُ مستغيثاً باسم الله. ***والمتروكُ*** هناك عوضاً عنه، و***لماذا*** يمكُثُ هناك، هو شيءٌ يستنجدُ بالسموات - مستر آترسون!"

"هذه حكاية غريبة جداً، بول؛ بل هي حكاية مريعة يا رجُل"، قال مستر آترسون، عاضّاً إصبعه. "لنفترض المسألة كما تفترضُ أنت، مفترضين إن دكتور جيكل قد - حسناً، قد قُتِل، فماذا يدعو القاتل إلى المكوث؟ إن هذا اللغوَ كالنفخِ في قربةٍ مثقوبة، إنه لا يجدُ من العقلِ مسوّغاً".

"حسناً، مستر آترسون، أنت رجل صعبُ إقناعُه، مع ذلك سأقنعك". قال بول. "طوال الأسبوع المنصرم (لابد أنك تعلم) كان، هو أو كائناً ما كان يقطن في ذاك المكتب، يستصرخُ ليلَ نهار طلباً لنوعٍ من العقاقير ولا يسعفُهُ ذهنه على استحضارِ اسمه. كان من طبعه أحياناً - المعلمَ، أقصد - أن يدوّنَ أوامره على قصاصةِ ورق يلقي بها على السلم؛ وما تلقّينا الأسبوعَ الفائت شيئاً آخر؛ لا شيء سوى القصاصات وبابٍ موصد والوجبات عينها متروكةً هناك فتُختطَفُ خلسةً عندما لا يُجيل أحدٌ بصرَهُ. حسناً، سيدي، كلّ يومٍ، آه،و مرتين و ثلاثاً في اليوم نفسه، كانت هناك أوامر و شكاوى، و كم بُعِثْتُ المرة تلو الأخرى وعلى جناحِ السرعة إلى كافة الصيادلة الكبار في المدينة. وفي كلّ مرة جلبتُ فيها الدواء عائداً أدراجي إليه، كانت هناك قصاصةٌ أخرى يردُّني فحواها على أعقابي كي أعيدَ الدواء و أستبدلَهُ لأنه ليس نقيّاً، فأمتثلُ لأمرٍ آخر كي أحضرَ نوعاً مختلفاً. كان يتحرّقُ إلى هذا الدواء بلهفةٍ مريرة، سيدي، أياً كانتِ الغايةُ منه".

"أبحوزتك أيٌّ من هذه القصاصات؟" سأل مستر آترسون.

تحسّسَ بول جيبه واستلّ ورقةً مجعّدة ناولها إلى المحامي الذي دنا من الشمعة محدودباً ليتفحّصها بإمعان. فوجد محتوياتها كما يأتي: "يتقدّمُ دكتور جيكل بتحياته إلى السادة ماو، مؤكداً لهم إن عينّتهم الأخيرة غير نقية و لا تنفعُ مرامَهُ الراهن. ففي سنة ١٨.، ابتاعَ دكتور ج كمية كبيرة نسبياً من السادة ماو، وهو الآن يرجوهم أن يفتّشوا عن نوعٍ مماثل متوخّين من الحرصِ أشدّه، فإذا ما تبقّى من نفسِ الصنف أيٌّ مقدار فأرسلوه إليه على الفور، وغضّوا الطرفَ عن الثمن. إن هذا الشأن بالنسبة للدكتور ج ذو أهمية تفوق كلَّ المقاييس". وإلى هنا ظلّت الرسالة تنساب في تدوينٍ هادئ؛ ثم، وبانحرافٍ مباغت في ميَلانِ القلم، عاطفة الكاتب تداعى توازنُها. "أستحلفكم بالله"، أردفَ، "جدوا لي قليلاً من الصنف القديم".

"إن هذا الخطابُ غريب"، قال مستر آترسون؛ ثم أضاف محتداً، "وكيف تسنّى لك أن تفتحه؟"

"الرجل في صيدلية ماو استشاط غضباً، سيدي، وقذفَ بالورقةِ في وجهي، كمثلِ سائرِ القاذورات"، ردّ بول.

"هذا هو خطُّ الدكتور بلا جدال، هل تعرف؟" استأنف المحامي.

"ظننتُ الخطّين شبيهين". قال الخادم، مقطباً قليلاً؛ ثم أردفَ بنبرةٍ مغايرة، "وبِمَ ستُفيدنا اليدُ التي كتَبتْ؟ لقد رأيتُه!"

"رأيتَهُ؟" كرّر مستر آترسون. "حسناً؟"

"أجل!" قال بول. "وإليكَ الطريقةُ التي رأيتهُ بها. دلفتُ بغتةً إلى المشرحةِ آيباً من الحديقة. أما هو فكان قد تسلّل، كما يبدو، ليستطلعَ هذا الدواء أو أيَّ شيء آخر؛ لأنه تركَ بابَ المكتب مشرعاً، و راح، هناك في الطرف القصيَّ من الغرفة، ينقّبُ بين القوارير. ولمّا دخلتُ شخَصَ بناظريه، وأطلقَ صيحةً هرعَ بعدها مهرولاً يرتقي الأدراج و ولَجَ المكتب. وما استغرقَ الوقتُ الذي رأيتهُ فيه إلا دقيقةً واحدة، غير أن الشعرَ انتصبَ في رأسي كأشواك القنافذ. سيدي، إذا كان من رأيتُ هو معلمي، فلمَ كان لابساً فوق وجهه قناعاً؟ إذا كان معلمي، فلماذا دوّتْ صيحتُهُ كجُرذٍ ولّى الأدبار هارباً مني؟ لقد مضى عليَّ في خدمته وقتٌ طويل بما فيه الكفاية. وعندئذٍ..."، و انقطع الرجلُ عن الكلام ومرّرَ يده فوق وجهه.

"إن هذه، قاطبةً، لوقائعُ غريبة جداً"، قال مستر آترسون، "لكن، أعتقد بأني قد

شـرعتُ ألمح ضـوء النهـار. من البيّن أن سـيـدك، يا بول، قـد انتـابَهُ واحدُ مـن تلك الأسقامِ التي تشوّهُ وتفتكُ، في آنٍ، بِمَنْ يُقاسيها؛ من هنا، بحسب ما أعرفه، تغيُّرُ صوته؛ من هنا القناعُ واجتنابُه أصدقاءَه؛ من هنا لهفتهُ للعثور على هذا الدواء الذي ستستردُّ به الروحُ المسكينة بعضاً من رجائها في الشفاء الكليّ - ولنأمل من الله ألا يضلّ مسعاه! ذلك هو تأويلي؛ إنه لُمحزن بما فيه الكفاية، يا بول،آه، بل يفزعني تأمّلهُ، لكنه واضحٌ وطبيعيّ ومتماسك جيداً، كما يخلّصنا ممّا نحنُ فيه من ذعرٍ كبير

"سيدي"، قال كبير الخدم، بسحنةٍ ممتقعة يبقّعها الشحوب، "ما كان ذاك الشيءُ معلمي، وهذه هي الحقيقة. معلمي - وهنا تلفّتَ حوله وراح يهمسُ، "رجلٌ طويل متينُ البنية، فأين منه هذا القزم؟" حاوَل آترسون أن يحتجّ. "آه، سيدي"، صاح بول، "أتظنّني لا أعرفُ معلمي بعد عشرين سنة؟ أتظنّني لا أعرفُ إلى أيّ حدّ تصلُ رأسُه من باب المكتب، بينما أنا أراهُ في كلّ صباحٍ من صباحاتِ حياتي؟ كلا، يا سيدي، ما كان ذاك الشيءُ ذو القناع قطّ بالدكتور جيكل - يعلم الله ما هو، لكنه ليس أبداً بالدكتور جيكل؛ وإنه ليقينٌ مستقرٌّ في قلبي يُنْبِئني بجريمةِ قتل قد اقتُرفتْ هناك"

"بول"، أجاب المحامي،" ما دامت أقوالك هكذا، فسيغدو من واجبي التثبُّتُ مما قلتَ. وبقدر ما أودُّ الحفاظَ على مشاعر سيّدك و عدم المساسِ بها، كذلك تبلبلني الحيرةُ حيال هذه الرسالةِ التي تثبتُ، كما يبدو، إنه ما يزالُ على قيدِ الحياة؛ أجدُ من واجبي أن أقتحمَ ذاك البابَ"

"آه، مستر آترسون، هذا هو عينُ الصواب! " صاح كبيرُ الخدم.

"والآن يجيءُ السؤالُ الثاني"، استأنف آترسون، "من سيخلعُ الباب؟"

"ولماذا - أنا وأنت، سيدي"، كانت الإجابةُ الباسلة.

"أحسنتَ قولاً"، ردَّ المحامي؛" ومهما تكن النتائج فكُنْ واثقاً من أنك لن تخسر شيئاً، و لن أتخلّى عنك"

"ثمة فأسٌ في المشرحة" استكمل بول؛ "ولك أن تُعينَ نفسك بِمسْعَرِ المطبخ"

رفعَ المحامي بيده تلك الأداةَ الخشنة الثقيلة وجعلَ يروزُها. "أتعرفُ، يا بول"، قال، شاخصاً ببصره للأعلى، "إننا، أنا وأنت، مقبلان على وضعِ أنفسنا في موقفٍ قد يعرّضنا للخطر؟"

"حقاً، بإمكانك أن تقولَ هذا، سيدي." ردَّ كبيرُ الخدم.

"فإذن، يجدرُ بنا أن نكون صُرحاء"، قال الآخرُ. "إن هواجسَ كلينا لأكبرُ ممّا بُحْنا به؛ فلننفضِ إذن بما يعتملُ في صدورنا. هذا المسخُ المقنَّع الذي رأيتَ، هل تعرَّفتَ إليه؟"

"حسناً، سيدي، لقد مرَّ المخلوقُ خطْفاً، فالتبسَ عليَّ، وأنا أستصعبُ الآن أن أحلفَ اليمين على ما رأيتُ"، كان الجواب. "أمّا إذا قصدتَ، هل هو مستر هايد؟ لمَ، بلى، أظنُّه هو! وكما ترى، كان لهُ من القدِّ الضآلةُ ذاتُها؛ وله الرشاقةُ والخفةُ إياهما؛ ومن ثمَّ مَنْ سواهُ يستطيعُ الدخولَ من بابِ المختبر؟ هل نسيتَ يا سيدي أنه أوانَ الجريمة كان ما يزالُ محتفظاً بالمفتاحِ معه؟ و ليس هذا كلَّ شيء. ولستُ أدري، مستر آترسون، إنْ كنتَ قد التقيتَ من قبل مستر هايد هذا؟"

"أجل"، قال المحامي، "وذات مرة تحدّثتُ إليه".

"فإذاً، كنتَ تعرفُ بالتأكيد، كما نعرفُ نحن جميعاً، إنّ شيئاً شاذاً كان يحوطُ ذاك الجنتلمان - شيئاً تختضُّ منه الأفئدة، ولستُ أدري كيف أعبّر على وجه الصواب، سيدي، إلا بهذه العبارة: "أن تشعرَ بنقي عظامك يترقّقُ وينفذ البردُ فيه" ".

"إني أقرُّ بشعورٍ مماثل لما وصفته". قال مستر آترسون.

"تماماً يا سيدي"، ردّ بول. "حسناً، عندما نطَّ ذاك الشيءُ المقنَّع كسعدانٍ من بين المواد الكيماوية، وهرع إلى داخل المكتب، سرَتْ في عموديَ الفقريّ قشعريرةٌ كالجليد تحدَّرتْ. آه، أعرفُ أن ما أقولهُ ليس دليلاً، مستر آترسون، فأنا لستُ رجلاً عالماً بالكتب ضليعاً في هذا المضمار؛ لكن لكلِّ امرىءٍ مشاعرهُ الخاصة. وإني لأقسم لك بالكتابِ المقدس بأنه كان مستر هايد!"

"نعم، نعم"، قال المحامي. "إن مخاوفي تنحو المنحى ذاته - الشرُّ، كما أخشى، توطّدَ جراءَ تلك الصلة، شرٌ استفحلَ و لا رادَّ لقدومه. أجل، إني لأصدّقك حقاً؛ وأعتقدُ إنّ هاري المسكين قد قُتِل؛ وأعتقد إن قاتله (ولسببٍ لا يعلمهُ إلا الله) لم يبرحْ مكمنَه، متوارياً في غرفة ضحيته. حسناً، فليسمُّونا بالمنتقمين. نادِ على برادشو".

امتثلَ الخادمُ البوّاب للنداء الآمر، وجاءهما شاحباً متوتّرَ الأعصاب.

"استجمعْ رباطةَ جأشك، برادشو"، قال المحامي، "أعلمُ إنّ هذا الشكَّ العالقَ يرزحُ فوق صدوركم جميعاً؛ لكننا الآن عازمون أن نضعَ حداً له. بول، هنا، وأنا سنشقُّ طريقنا بالقوة إلى داخل المكتب. لو تمَّ كلُّ شيء على ما يُرام فإنّ عاتقيّ العريضين يتكفّلان بتنكُّبِ اللوم. وفي هذه الأثناء، مخافةَ أن يفلتَ أيُّ شيء من

أيدينا حقاً، ولئلا يحاولَ أيُّ عنصرٍ ذكَرٍ الفرارَ من خلف ظهورنا، عليكما، أنتَ والغلام، بالمضيِّ لتكمنا له بالمرصاد عند الناصية، وبأيديكما زوجٌ من الهراوات المتينة، واتّخذا موقعيكما عند بابِ المختبر. أمامكما عشرُ دقائق كي تلحقا بمركزيكما".

ولمّا غادرَ برادشو رمقَ المحامي ساعةَ معصمه وقال: "والآن يا بول، فلنلتحقْ نحن بمراكزنا". سارَ متقدّماً صوب الفناء، متأبّطاً المسْعَر تحت ذراعه. حطَّ على ضفاف القمر سحابٌ تسوقهُ الرياح، وأطبقَ الظلامُ الآن بهيماً. الريحُ تبدّدتْ نفثات وتياراتَ هواءٍ تموجُ في جبِّ المبنى العميق وتذبذبُ نورَ الشمعة رواحاً ومجيئاً فتخفقُ الظلالُ حول خطواتهما، حتى وصلا ودلفا ملاذ المشرحة حيث قبعا صامتين يترقّبان. كانت همهماتُ لندن تتصاعدُ كئيبةً من سائر الأرجاء حولهما؛ لكن على مقربةٍ منهما كان السكونُ لا يشوبهُ سوى جلَبةِ خطىً تسيرُ ذهاباً وإياباً على امتداد أرضيةِ المكتب.

"هكذا، يا سيدي، يُمضي سحابةَ نهاره ماشياً على هذا النحو"، همسَ بول؛ "آه، ومن الليلِ جُلّه إلا قليلاً. ولا ينتابُ هذه الوتيرةَ أيةُ استراحةٍ مهما ضؤُلَتْ، إلا عندما تصلُ من الصيدلاني عينةٌ جديدة. آه، إنّ تأنيبَ الضمير لعدوٌّ لكلِّ راحة! آه، يا سيدي، ثمة دمٌ فاسدٌ يُراقُ في كلِّ خطوةٍ من خطواته! لكن أصغِ السمعَ مرة أخرى، ادنُ قليلاً - ضعْ قلبك في أذنيك، مستر آترسون، وقلْ لي، أذاك وقعُ أقدامِ الدكتور؟"

كانت الخطى في وقعها خفيفةً وغريبة، يتخلّلها ترنُّحٌ معيّن، وهي جميعاً تتئد بطيئةً في سيرها؛ وإنها مغايرةٌ حقاً للخطواتِ الثقيلة المدوّية لهنري جيكل. تنهّدَ آترسون، واستفسر،"أما من شيءٍ آخرَ سواها؟"

هزَّ بول رأسه وقال،"مرةً... مرة سمعتهُ ينتحب!".

"ينتحب؟ كيف؟ "، قال المحامي وقد دهمتْهُ قشعريرةُ ذعرٍ باردة.

"كان ينتحبُ مثل امرأةٍ أو روحٍ ضائعة"، قال كبيرُ الخدم. "فابتعدتُ وذاك النحيبُ يثقلُ قلبي، حتى أوشكتُ أبكي أنا أيضاً".

ها هي الدقائقُ العشر الآن قد أزفَتْ نهايتها. استلَّ بول الفأسَ من تحت كيسِ القشِّ المحزوم؛ الشمعة وُضعت فوق المنضدةِ الأقربِ إليهما كي تُنيرَ لهما هجومهما؛ وبأنفاسٍ تلهثُ اقتربا من ركنِ القدمِ الصبورةِ التي ما تزالُ تعلو وتهبط، وتعلو وتهبطُ في الليلِ الساجي.

"جيكل"، صاحَ آترسون بصوتٍ عالٍ، "إني أطلبُ رؤيتك". وأمسكَ عن الكلام للحظة، فما جاءه أيُّ ردّ. "إني أنذرُكَ الآنَ بلطف، فقد احتدمَتْ شكوكنا، ويجبُ أن أراك حتماً". استأنف: "وما لم تُجْدِ الوسائل العادية فسنلجأ للقوة- وما لم تقبلْ بملء رضاك أن تفتحَ الباب فسنفتحهُ عنوةً!"

قال الصوتُ: "آترسون، ترأفْ بي، حباً للّه!"

"آه، هذا ليس صوت جيكل، إنه صوتُ هايد!" صاح آترسون. "هيا، اكسرِ الباب، بول!"

لوّحَ بول بالفأس فوق كتفه، فاهتزَّ البنيانُ من الضربة، وتزعزعَ البابُ المكسوّ بالبيزِ الأحمر متشبّثاً بمفاصله وقُفله. وتناهت مجلجلةً من المكتب صرخةُ ذعرٍ مستوحشة أشبهُ بصيحة حيوانٍ مذعور. وعلت الفأسُ مرة أخرى، وتهشّمت الألواحُ الخشبية من جديد وتخلخلَ إطارُ الباب؛ تهاوت الضرباتُ أربعَ مرات؛ غير أنَّ الخشبَ كان صلداً قُدَّ متيناً على أيدي نجّارين مهَرة؛ وصمَدَ البابُ حتى الضربة الخامسة حين انفلقَ القفلُ إلى نصفين، وهوى حُطامُ البابِ نحو الداخل متناثراً على السجادة.

المحاصران، المرتعبان من الجلَبة التي أحدثاها والسكونِ الذي أعقبها، ظلاّ واقفين على العتبة هنيهةً يحملقان بداخل الغرفة. فإذا بالمكتبِ ممتداً قدام أعينهما في نورِ القنديل الهادئ: نارٌ قوية تهسهسُ وتضطرمُ في المصطلى، وفوقه الإبريقُ يغنّي ترنيمتَهُ الرقيقة، دُرْجٌ أو اثنان مفتوحان، أوراقٌ منضودةٌ في أناقة على طاولة العمل، وبالقرب من النار الأواني موضوعةٌ لاحتساء الشاي؛ و لربما خطرَ للناظر أنَ يقولَ هي ذي أهدأُ الغرف، ولولا ألقُ القواريرِ الملأى بالمواد الكيماوية لقُلتَ إن هذه الغرفةَ هي أكثر الأماكنِ حميميةً في لندن تلك الليلة.

وهناك، في منتصف الغرفة تحديداً، يرقدُ جثمانُ رجلٍ منكمشٍ للغاية ما يزالُ يتلوّى. فاقتربا منه على رؤوسِ أصابعهما، وقَلَبَاهُ على ظهره ليبصرا وجهَ إدوارد هايد. كان يرتدي لباساً فضفاضاً بالنسبة إليه، لباساً من مقَاسِ الطبيب؛ ولمّا يزلْ طيفٌ من حياة يتململُ في تقاطيعِ وجهه، غير أن الحياةَ كانت قد فارقتْهُ تماماً؛ ومن القارورة المهشّمة في قبضةِ اليد و ضَوْعِ الزيوتِ القويِّ الذي يعبقُ عالقاً في الجوّ استشفَّ آترسون إنه يرنو إلى جثة رجلٍ دمّرَ نفسه.

"لقد كان وصولُنا متأخراً للغاية"، قال متحسّراً، "سيّانِ كي ننقذَهُ أو نقتصَّ منه. لقد مضى هايد في حالِ سبيله؛ ولم يبقَ لنا سوى العثورُ على جثمانِ معلمك".

كان الحيز الأعظم من المبنى مشغولاً بالمشرحة التي تُضاءُ من فوق وتحتلُّ تقريباً كاملَ الطابقِ الأرضيِّ، إلى جانب المكتب في الطابق العلويّ على طرف المشرحة القصيّ وله إطلالةٌ تشرفُ على الفناء. ثمة ممشى يفضي بالمشرحة إلى الباب القائم على الشارع الفرعيّ؛ وعبر هذا الممشى يتصل المكتبُ بالشارع على نحوٍ منفصل بواسطة لولبٍ ثانٍ من السلالم. وفضلاً عن هذا، كانت ثمة عدةُ غرفٍ مظلمة ومخزنٌ واسع، وقد تم الآن ارتيادُها و استقصاؤها كلّها بأناة، وما استدعت كلُّ غرفةٍ إلا نظرةً سريعة لأنها كانت خاليةً جميعاً، وجميعها لم يُفتحْ منذ أمد بعيد كما يدلُّ الغبارُ الذي تساقطَ من أبوابها. أما المخزنُ فكان، في الواقع، مكتظاً بسقط متاع مبعثرٍ يعودُ معظمه إلى عهودِ الجرّاحِ الذي كان سلفَ جيكل في السكنى هنا؛ ولكن عندما فتحا بابَهُ أنبأهما بعدم جدوى المزيد من التحرّيات تساقطُ نسيجٍ لم يُمسّ من شباك العنكبوت كان قد ختَمَ على المدخل منذ سنين.و ما من أثرٍ لهنري جيكل في أي ركن، حياً أو ميتاً.

قرعَ بول بحذائه بلاطاتِ الممشى. "لا بد إنه مدفونٌ هنا"، قال، مرهفاً سمعَهُ إلى رَجْعِ الصوت.

"أو لعله لاذ بالفرار"، قال آترسون، واستدار ليتفحّصَ البابَ المفضي إلى الشارع الفرعي. كان مقفلاً؛ وعثرا على المفتاحِ مُلقى إلى جانبه على البلاط وقد علاهُ الصدأ.

"لا يبدو إنه قد استُعمل"، لاحظ المحامي.

"استُعمل!" ردَّد بول. "ألا ترى، يا سيدي، إنه مكسور؛ كأنّ رجلاً على الأرجح قد داسَهُ بحذائه".

"آه"، واصل آترسون، "والأسنانُ المثلومة صدئةٌ أيضاً". وحملقَ الرجلان أحدُهما بالآخر في خشية."إنه لأمرٌ يتخطّى مداركي، يا بول"، قال المحامي. "لنعُدْ أدراجنا إلى المكتب".

وارتقيا الدرجَ في صمت، واستأنفا بمزيد من التأني تفحّصَ محتويات المكتب، وهما يلقيان بين الفينة والفينة نظرةً مأخوذةً بالرعب على الجثمانِ المسجّى. على إحدى المناضد كانت ثمةَ آثارُ عملٍ كيميائي، وأكوامُ متنوّعة موزونةَ من ملحٍ أبيض وُضعت على أطباقِ بللور صغيرة، كأنها مُعدةٌ لأجل تجربةٍ لم يُقيِّضْ لهذا الرجلِ التعيس أن يتمَّها.

"ذاك هو الدواءُ عينه الذي كنتُ أجيءُ به على الدوام"، قال بول؛ وفي غمرةِ حديثه فاضَ الماءُ المغليّ عن الإبريق ضاجّاً في جلَبةٍ أجفلتهما. مّما حدا بهما إلى جوار النار، حيث الكرسي الوثيرُ مسحوب إلى مقربةٍ منها، وأواني الشاي مهيأة بمحاذاة مرفقِ الجالس، وفي الفنجانِ المقدارُ نفسه من السكّر. على أحد الأرفف تناثرت كتبٌ عديدة؛ وقرب أواني الشاي كان ثمة كتابٌ مفتوح دُهشَ آترسون عندما وجد فيه نسخةً من عملٍ دينيّ كان جيكل قد أعربَ حياله، مراتٍ عديدة، عن وافرِ تبجيله، وقد علّقَ عليه بالحواشي، مُدوَّنةً بخطّ يده، ملأى بتجديفاتٍ رهيبة.

لاحقاً، عندما فتّشا الغرفةَ من جديد، وصل الباحثان إلى المرآة ذات الإطار، وفي عمقها حدّقا و بهما رعبٌ خارجٌ عن إرادتهما. وكانت قد أُديرَت كي لا تكشفَ لهما شيئاً غير الوهجِ الورديّ يتلاعبُ على السقف، ومئات الشرارات تنبثقُ من النار تكراراً وتنعكسُ على امتداد الواجهةِ المؤتلقة للقوارير، وسحنتيهما الشاحبتين والمذعورتين اللتين تحدودبان لتحدّقا.

"كم رأتْ هذه المرآة من أشياء غريبة، سيدي"، همس بول.

"ويقيناً، لا شيءَ فاقَها هي في الغرابة"، تصادى المحامي، مردّداً بالهمسِ إياه. "علامَ جيكل" وأمسكَ نفسه دون الكلمةِ التي أوشكَ ينطقها، ومن ثم غالبَ ضعفَه وأتمَّ: "ما عساه جيكل يصنع بها؟"

"عليكَ بالحلّ!" قال بول.

ثم استدارا إلى طاولةِ العمل، وعلى سطحها، وسط رُزَمِ الأوراق المرتّبة، ثمة مغلّفٌ كبير في الأعلى يحملُ اسمَ مستر آترسون مدوّناً بيدِ الطبيب. افتضَّ المحامي الختمَ فتناثرت على الأرض بضعةُ مغلّفاتٍ أخرى. كان المغلّفُ الأول وصيةً ذُيّلت بالعبارات المستهجنة إياها، على غرارِ الوصيةِ التي ردّها لصاحبها قبل ستةِ أشهرٍ خلت، كي تُنفَّذَ كميثاقٍ في حال موته وكهبةٍ في حال اختفائه؛ لكن المحامي، وقد استحوذَهُ ذهولٌ عصيٌّ على الوصف، قرأَ في موضعِ اسمِ إدوارد هايد اسمَه هو: غابرييل جون آترسون. نظر إلى بول، ثم رمق الأوراق مرة أُخرى، و أخيراً نظر إلى المجرم الميت مسجىً على السجادة.

"إن رأسي تدور"، قال. "لقد كانت هذه الوصية، طوال هذه الأيام، في حوزته؛ وما من سببٍ لديه كي يحبّني؛ ولابُد أنه قد غضبَ غضباً شديداً لأنني حللتُ محلّه؛ ومع هذا لم يبادرْ إلى إتلافِ هذه الوثيقة".

وأمسك بالورقة التالية؛ فرآها ملحوظةً مقتضبة كتبها الطبيبُ بخطّ يده والتاريخُ مدوّنٌ أعلاها. "آه، بول!"، صاح المحامي، "لقد كان حيّاً وموجوداً هنا هذا اليوم. لا يمكن أن تمَّ التخلصُ منه في برهةٍ وجيزة كهذه؛ لابد إنه ما يزالُ على قيد الحياة، وقد لاذ بالفرار! لمَ لاذ بالفرار؟ وكيف؟ وفي هذه الحالة هل بوسعنا أن نجازفَ ونجهرَ هذه الواقعة انتحاراً؟ آهٍ، علينا بالتزامِ الحرص لئلا نورّطَ معلمك، كما يتراءى لي، في كارثة مفجعة".

"لمَ لا تقرأ، سيدي؟" استفسر بول.

"لأني خائف". أجاب المحامي، واجماً. "رحمتَك يا رب، إني لا أجدُ لهذه الخشية سبباً!". ولمّا تلفّظَ بتلك العبارة أدنى الورقةَ من عينيه، وقرأها كما يلي:

عزيزي آترسون ـ عندما تقع هذه الورقةُ بين يديك، سأكون قد اختفيتُ، في ظروفٍ لا أتوافرُ على البصيرة الثاقبة كي أستشرفَ كنهَها؛ لكن غريزتي وسائرَ الظروف التي أحاطتْ وضعي الذي لا يُسمّى تُنبئني بأن النهاية أكيدة وها هي قد أزفت باكراً. فامضِ إذن، واقرأ أولاً الروايةَ التي هدّدني لانيون بإيداعِها بين يديك؛ وإنْ شئتَ أن تسمعَ المزيد، فعُدْ إلى اعتراف

صديقك الشقيّ وغير الجدير بالصداقة،

هنري جيكل

"كان هناك مغلّف ثالث". تساءل آترسون.

"هو ذا هُنا، سيدي" قال بول، وأودعَ بين يديه رزمةً كبيرة من الأوراق ممهورةً في مواضعَ عديدة منها.

دسّها المحامي في جيبه، وقال: "لن أقولَ شيئاً حول هذه الورقة. إذا ما كان معلمكم قد فرَّ أو قضى نحبه، فبوسعنا على الأقل إنقاذُ سمعته. الساعةُ الآن هي العاشرة؛ يجب أن أذهبَ إلى البيت وأقرأ في هدوء هذه الوثائق؛ لكنني سأعود قبل انتصاف الليل، حين سنرسلُ في طلب الشرطة".

خرَج الاثنان معاً، وأرتجَا بابَ المشرحة خلفهما؛ وعاد آترسون، بعد أن ترك الخدمَ مرة أخرى متكوّمين حول النار في البهو، راجعاً بخُطى متثاقلة إلى مكتبه، كي يقرأ الروايتين اللتين ستفسّران الآن هذا اللغز.

رواية دكتور لانيون

في التاسع من كانون الثاني، قد انقضت الآن أربعة أيام،تلقّيتُ في بريد المساء رسالةً مسجّلة، و قد كُتبَ العنوانُ على المغلّف بيد زميلي وصاحبي القديم في الدراسة، هنري جيكل. فتولّتني الدهشةُ لهذا الأمر، لأننا، أنا و هو، لم ندرجْ قطّ على عادة التراسُل هذه؛ فقد رأيتُ الرجل حقاً و تعشيّت معه، الليلةَ الفائتة؛ و لم أتذكرْ ممّا تداولناهُ خلال حديثنا شيئاً يستوجبُ هذا التسجيلَ الرسميّ. أمّا المحتويات ففاقمَتْ استغرابي؛ و قد جاء فيها ما يلي:

١٠ كانون الأول، ـ ١٨

عزيزي لانيون ـ أنت صديقٌ من أقدم أصدقائي؛ وعلى الرغم من اختلافنا أحياناً في مسائل علمية، فإنني لا أذكرُ، من جهتي على الأقلّ، أيَّ انقطاعٍ اعتورَ مودّتنا. ولم يأت قطُّ يومٌ لو قلتَ لي فيه "جيكل، إن حياتي وشرفي وعقلي تتوقّفُ عليك" فتوانيتُ عن التضحية بثروتي أو بيدي اليسرى كيما أساعدك. لانيون، حياتي وشرفي وعقلي جميعاً رَهْنُ رحمتك؛ وإذا ما خذلتني هذه الليلة فسوف أضيع. و لربما ظننتَ، إثرَ هذه التوطئة، إني أمهّدُ كي أسألك شيئاً تمنحني إياه و لا يليقُ بمنزلتك. فاحكمْ بنفسك.

أريدُ منك أن ترجيءَ كافةَ التزاماتك الأخرى هذه الليلة- أجل، حتى لو أُمرتَ بالسهر على إمبراطورٍ مريض في سريره؛ ولتستقلَّ عربةً أجرة ما لم تكنْ عربتك تلبثُ حقاً عند الباب؛ وفي يدك هذه الرسالةُ بغيةَ المشاورة، اتّجهْ فوراً إلى دارتي.

بول كبيرُ خدمي قد تلقّى الأوامر؛ ستجدُه منتظراً وصولك ومعه حدّادُ أقفال. وعندئذ اخلعوا بالقوة بابَ مكتبي؛ وادخلْ أنتَ بمفردك؛ وافتح الخزانةَ اللامعة (الموسومةَ بالحرف E) على جهة اليد اليسرى، واكسر القفلَ إذا كانت موصودة؛ واسحب الدرجَ الرابعَ من أعلى أو (وهذانِ سيّان) الثالثَ من أسفل، مع كافة محتوياته بما هي عليه. وفي الاضطراب الشديد الآخذ بعقلي يساورُني خوفُ مرضيّ من أن أضلّلك؛ وحتى إن أخطأتُ الوصفَ فبوسعك أن تتعرّف الدرجَ المقصود من خلال محتوياته: بضعةُ ذرور، قارورةٌ، و كتابٌ ذو غلاف ورقي. وأرجوك أن تحملَ هذا الدرج معك وتعودَ به إلى ساحة كيفنديش مثلما تجدُه بالضبط.

ذاك هو الشطرُ الأول من خدمتك لي. سأوضّحُ الآن الشطرَ الثاني. ستكون قد عدتَ أدراجك قبل منتصف الليل بوقتٍ طويل إذا ما انطلقت فورَ استلامك هذه الرسالة؛ غير إني سأفسحُ لكَ هذا الهامشَ الواسع لا خيفةً فحسبُ من إحدى العقبات التي لا يمكنُ اتّقاؤها أو التكهُّن بها، بل لأنّ الساعةَ التي يخلدُ فيها خدمك إلى الفراش هي خيرُ ساعةٍ لتستكملَ آنئذٍ القيامَ بما تبقّى. في منتصف الليل إذن، ها أنذا أسألك أن تكون بمفردك في غرفة الاستشارة؛ كي تأذنَ وتدخلَ بيدك إلى الدار رجلاً سيتقدّمُ إليك باسمي، فتودعَ بين يديه الدرجَ الذي ستكونُ قد أحضرته معك من مكتبي. وحينئذٍ ستكون قد قُمتَ بدورك واستحققتَ غامرَ امتناني. وإذا انقضَتْ خمسُ دقائق، وأصررتَ على تفسيرٍ لما يجري، فستفهمُ أن هذه التدابير ذات أهمية عُظمى؛ و أنك إذا أهملتَ أيّاً منها، مهما تبدّت غريبةً كالخيال، فستثقلُ ضميرك بعبء موتي أو فقدانيَ عقلي.

برغم ثقتي أنك لن تستخفَّ بهذا الرجاء، فإن قلبي يُعتصَر ويدي ترتجف هلعاً لمجردِ التفكيرِ بمثل هذا الاحتمال. فكّر بي هذه الساعة، في مكانٍ غريب، رازحاً تحت قتامة ضيقٍ لن يتخطّاه أيُّ خيَالٍ مهما بالغَ في الوصف، وإنّي مع ذلك على تمامٍ الدرايةَ بأن متاعبي - لو أسديتَ لي هذا المعروف في حينه - سوف تترى متلاشيةً كمثلِ قصّةٍ رُويت. فلتخدمني، عزيزي لانيون، ولتنقذْ

صديقك

هـ.ج

ملاحظة: كنتُ قد ختمتُ هذه الرسالة للتوّ عندما داهمني ذعرٌ جديد جَثمَ على روحي. فمن المحتمل أن يخذلني مكتبُ البريد فلا تمثُل هذه الرسالةُ بين يديك حتى صبيحة يومِ غد. وفي هذه الحالة، لانيون العزيز، نفّذ فحواها في الوقت الذي ترتأيه مناسباً لك في مجرى النهار؛ ولترقبْ رسولي مرة أخرى في منتصف الليلة الثانية. ولربما كان الوقتُ آنئذ متأخراً للغاية؛ فإذا ما انقضى الليلُ ولم يحدُثْ شيء، فاعلمْ بأنك ستكونُ قد شهدتَ نهايةَ هنري جيكل.

لدى قراءة هذه الرسالة أيقنتُ بأن زميلي كان مجنوناً؛ غير أني - ريثما أتحقّقُ من جنونه بدليلٍ يقطعُ أيَّ احتمالٍ للشكّ - أحسستني ملزَماً بتنفيذ ما ناشدني إياه. ولقلّة ما فقهتُ من هذه الأضغاث، لم أجدني في موقعٍ يتيح لي الحكمَ على أهميتها؛ فلم أستطعْ الاستهانة بمثل هذا الالتماس الحافل بهذه الكلمات المتضرّعة دون أن أتحمّلَ مسؤولية جسيمة. وهكذا نهضتُ عن مائدتي ملبيّاً نداءَهُ، وركبتُ عربةً يجرُّها حصانان، وقصدتُ على الفور دارَ جيكل. كان كبيرُ الخدم ينتظرُ وصولي؛ وقد تلقّى مثلي بالبريد ذاته رسالةً مسجَّلة تحوي التعليمات، فاستدعى في الحال حدّادَ أقفال ونجّاراً جاءا في أثناء حديثنا؛ فانتقلنا جميعاً إلى المشرحة القديمة للدكتور دنمان حيث (كما تدرك دون ريب) المدخلُ الأرحبُ المفضي إلى مكتب جيكل الخاص. كان البابُ متيناً للغاية والقفل مُتقناً؛ وأقرَّ النجّارُ بأنه سيتجشّمُ متاعبَ جمّة، وسيخلّفُ بالتأكيد ضرراً فادحاً إذا ما اضطرَ لاستعمالِ القوة؛ وشارفَ الحدّادُ على اليأس. لكنّه كان حِرَفيّاً حاذقاً فاستغرقَ منه الدأبُ ساعتين حتى انفتحَ الباب. كانت الخزانةُ الموسومة بحرف E مفكوكةَ القفل؛ وسحبتُ الدرج وأتممتُ حشوَهُ بالقشّ وحزمتُه في لفافة ورق، ثم عدتُ به إلى ساحة كيفنديش.

وهنا استأنفتُ تفحُّصَ محتوياته. كانت الذرورُ نظيفةً مرتّبة باعتناء لكنها لا تضاهي النقاوةَ التي يستخلصُها الصيدلاني المتمرّس؛ فتبيّنتُ جلياً إنها من صناعة جيكل نفسه؛ وعندما فتحتُ إحدى اللفافات وجدتُ ما بدا لعينيَّ مجرد ملحٍ بسيطٍ متبلّر ذي لونٍ أبيض. أما القارورةُ التي استرعتْ انتباهي تالياً فكانت مملوءةً حتى منتصفها تقريباً بسائلٍ أحمرَ كالدم كانت رائحته الواخزة تزكمُ الأنف، فاستبينتُ أنه يتضمّنُ الفوسفور وقليلاً من الإيثر الطيّار. أما المحتويات الأخرى فاستغلقَتْ عليّ وما استطعتُ أن أخمّنَ كنهها. وكان الكتابُ كرّاسة عادية ليس فيها إلا سلسلةٌ من

التواريخ التي تشملُ حقبةً تمتدُّ سنين عديدة، لكني لاحظتُ أن التواريخَ قد انقطعتْ منذ عام تقريباً، انقطاعاً تاماً ومفاجئاً. كانت ثمة ملاحظاتٌ مقتضبة، هنا وهناك، مذيّلةً بتاريخٍ ما، ولا تتجاوزُ عادةً الكلمةَ الواحدة: "القرين" ربما تكرّرت ست مرات في مجملِ اليوميات التي تربو على بضعِ مئات؛ كما وردتْ مبكّراً، ذات مرة، في مطلعِ هذه القائمة عبارةٌ مشفوعة ببضعِ علامات تعجب "فشلٌ مطبق!!!". كل هذا، وإن استثارَ فضولي، لم يُطلعني إلا على القليلِ من الموثوقات. فهنا قارورةٌ من سائلٍ ما، وكوزٌ ورقيٌ من ملحٍ ما، وسجلٌ لسلسلةٍ من التجارب لم تفضِ في النهاية (كالكثيرِ الكثير من أبحاث جيكل) إلى أيّةِ فائدةٍ عملية. فكيف سيؤثّر وجودُ هذه المواد في منزلي على زميلي المقلقلِ الأطوار، سواء على سمعته أو حياته أو رجاحة عقله؟ وإذا كان بوسع رسوله الذهابُ إلى أحد الأمكنة فلماذا لا يستطيعُ الذهابَ إلى مكانٍ آخر؟ ولماذا سأستقبلُ هذا السيد خلسةً، حتى وإن اعترضتْهُ بعضُ العوائق؟ وكلما تفحّصتُ هذا الأمر ملياً و قلّبتُهُ على عواهنه، ازدادتْ قناعتي رسوخاً بأنني إزاء حالة مسٍّ عقليّ؛ ولما صرفتُ خدمي إلى أسرَّتهم، حشوتُ بالبارود مسدّساً عتيقاً قد أحتاجهُ للدفاعِ عن نفسي.

لم تكدْ تدقُّ في أرجاء لندن دقاتُ الساعة الثانية عشرة حتى تناهَتْ إليّ طرقاتٌ على الباب خفيفةٌ للغاية. فذهبتُ بنفسي لأستطلعَ الطارق، ووجدتُ رجلاً ضئيلَ الجسم يربضُ متكئاً إلى العواميد التي تسندُ سقفَ المدخل.

"أأنتَ القادمُ من قِبلِ الدكتور جيكل؟" سألتُه.

"نعم"، أجابني بإيماءةٍ حذرة؛ وعندما طلبتُ منه الدخول لم يمتثلْ لي بدون أن ينظر خلفه مستطلعاً ظلمةَ الساحة. كان ثمة شرطيٌّ ليس على مبعدةٍ منا، يتقدّمُ كاشفاً عن ضوء مصباحه؛ وإذ رآهُ زائري حسبتُه أجفلَ فأسرعَ بالدخول.

أعترفُ بأنّ هذه التفاصيل كانت سيئةَ الوقع في نفسي؛ حتى إنني أبقيتُ يدي على أهبة الاستعداد فوق سلاحي حين تبعتُه إلى داخل الضياء الساطع في غرفة الاستشارة. وهنا، أخيراً، سنحتْ لي فرصةُ رؤيته بوضوح. فتأكّدَ لي أن عينيّ لم تقعا عليه قطّ من قبل. كان، مثلما نوّهتُ، ضئيلَ الجسم؛ كما إنني شُدهت بالتعبيرِ الفظيع في ملامحه؛ ففيه مزيجٌ فريد من النشاط العضليّ الهائل ووهنٍ شديد لا يخفى في البدن، و - أخيراً وليس آخراً - لم أفهم الاضطرابَ الشخصيّ الغريب الذي ألمَّ بي عندما جاورني. كان اضطراباً يحملُ بعضَ الشبه مع التيبُّس المرضي* مصحوباً

بتباطؤ ملحوظ في الخفقان. وفي هذه الآونة عزوتُ ما أحسستُ به إلى امتعاضٍ شخصيٍّ غريب، واكتفيتُ بالتعجُّب من حدّة علائمه؛ لكنّني أعتقد الآن بأن السببَ كامنٌ في أعماقٍ أوغلَ غوراً تمتدُّ إلى طبيعةِ الرجل، وإنه يستندُ إلى ما هو أسمى من مبدأ الكراهية.

هذا الشخص (الذي استنهضَ فيَّ، منذ اللحظة الأولى لدخوله، ما لا أستطيعُ وصفه إلا كضربٍ من الفضولِ المشوب بالاشمئزاز) كان يرتدي لباساً بوسعه أن يجعلَ أيَّ رجل عادي مضحكاً؛ فهذه الثياب، المنسوجةُ من قماشٍ فاخر ذي لون وقور إذا صحَّ الوصف، كانت فضفاضةً للغاية في جميع المقاييس- يتهدّلُ السروالُ على ساقيه وقد طُويَ من الأسفل كي لا يمسَّ الأرض، وخصرُ السترة دون حَقْويه، والياقةُ تنبسطُ عريضةً فوق منكبيه. الغريبُ حقاً إن هذا اللباسَ المهلهل لم يدفعْ بي إلى الضحك. بالأحرى ـ إذْ كان ثمة شيءٌ شاذٌ وغريبُ النشأة في الجوهرِ الصميم لذاك المخلوقِ الذي يواجهني الآن، شيء مقبضٌ للقلب، مدهشٌ ومنفّر ـ بدا هذا التباينُ الجديد منسجماً مع هذا الشذوذ معزّزاً قوّته؛ وهكذا انضافَ إلى اهتمامي بطبيعةِ الرجل وشخصه فضولٌ إزاء أصله وحياته، وثروته ومنزلته في العالم.

كانت هذه الملاحظات، برغم أنها شغلت هذا الحيِّزَ الكبير في التدوين، حصيلةَ ثوان معدودات فحسب. وفي الحقيقة، كان زائري مُستثاراً كأنه على نارٍ من القلق.

"هل جئتَ به؟" صاح. "هل جئت به"؟ "وبلغ منه نفاد الصبر حداً عظيماً فأطبقَ بيدهِ على ذراعي وحاولَ أن يهزّني.

صددتُه، فطناً بلمسته إلى قشعريرةٍ جليديّة سَرَتْ في دمائي. "أناتَكَ، سيدي". قلتُ. "لقد نسيتَ أني ما سُرِرْتُ بعدُ بمعرفتك. هلا تفضّلت بالجلوس، إذا سمحت." وكي يحذوَ حذوي ضربتُ له مثلاً بجلوسي على مقعدي في المكتب محاكياً الطريقةَ المعهودة التي أستقبلُ بها مريضاً، آخذاً بالحسبان تأخُّرَ الوقت وطبيعةَ هواجسي والذعرَ الذي تملّكني من زائري.

"أستميحُكَ عذراً، دكتور لانيون"، أجاب بدماثةٍ كافية. "ما تقولهُ منطقيٌّ للغاية؛ نفادُ صبري قد طوّحَ بلباقتي. لقد جئتُ إلى هنا بناءً على رجاء زميلك، دكتور هنري جيكل، في عملٍ محدّد وفي ساعةٍ محدّدة؛ وفهمتُ... " سكت ورفع يده إلى حلقه واستطعتُ أن أرى، برغم التماسكِ الظاهر في سلوكه، إنه يصارعُ بوادرَ الهستيريا ـ "فهمتُ أنَّ دُرْجاً..."

لكنني، هنا، أشفقتُ على تأتأةِ زائري القلق، وربما أشفقتُ قليلاً على فضولي المتعاظم.

"هو ذا، سيدي" قلت، مومئاً إلى الدُّرج الذي كان موضوعاً إلى جوار منضدةٍ على الأرض، وما تزالُ قطعةُ ورق تغطّيه.

فوثبَ نحو الدرج، ثم أحجمَ عن مسّه، واضعاً يدَهُ فوق قلبه؛ وتناهى إليَّ صريفُ أسنانه التي كانت تصطكّ جراء تشنّجٍ فكّيه، ولمّا رأيتُ وجههُ فظيعاً ممتقعاً تفاقمَ حذري خشيةً على حياتهِ وعقلهِ كليهما.

"تمالكْ نفسك." قلتُ.

استدارَ صوبي بابتسامةٍ مفزعة، وأزاحَ قطعةَ الورق، كأنه اتّخذَ قراراً نبعَ من صميمِ اليأس. ولمرأى المحتويات دوّى بشهقةٍ وحيدة تنمُّ عن ارتياحٍ عميم، حتى إنني لزمتُ مقعدي مشدوهاً. وفي اللحظة التالية، سا ءلني في صوتٍ استبَنْتُ فيه إنه للتوّ قد تمالكَ نفسه قليلاً: "ألديك زجاجةٌ مُدرَّجة؟".

نهضتُ من مكاني بمشقة، وناولتُه ما سا ءلني إياه.

شكرني بإحناءِ رأسه مبتسماً، وقاسَ في الزجاجة كميةً زهيدة من المحلول الأحمر ثم أضاف أحدَ المساحيق. المزيجُ الذي اصطبغَ في البداية بلونٍ أحمر، ابتدأ لونهُ يأتلقُ مع ذوبانِ البلورات، وراحَ يبثُّ غماماتٍ صغرى من البخار وهو يفورُ مسموعاً. بغتةً، وفي اللحظة نفسها، توقّفَ الغليان وانقلبَ المركّبُ قرمزياً قاتماً سرعان ما استحالَ بدوره، ببطءٍ أشدّ، إلى أخضر مائيّ. ابتسمَ زائري الذي كان يراقبُ عن كثب هذه التحولات، وضع الزجاجة فوق المنضدة، ثم استدارَ وألقى عليّ بنظرةٍ متفحّصة.

"والآن"، قال، "لنسوِّ ما تبقّى، و لنضعِ الأمورَ في نصابها. هل تتذرّعُ بالحكمة؟ ألن تضلّ؟ هل ستقتصُّ مني لو أخذتُ هذه الزجاجة في يدي، ومضيتُ عن منزلك بدون أيّ حديثٍ إضافيّ؟ أم أن شهوةَ الفضول قد تملّكتك؟ فكّرْ قبل أن تجيب، لأنني سأتقيّدُ بمشيئتك. وإذا نويتَ الرفض، فسوف تبقى كما كنت من قبل، ولن تزداد ثراءً ولا حكمة، إلا إذا اعتُبرت الخدمةُ التي تُسْدى لإنسانٍ تردّى في محنةٍ مميتة نوعاً من الثروة الروحية. أما إذا آثرتَ اختياراً آخر فقد تُشرّعُ أمامك مملكةٌ جديدة من ممالك المعرفة ودروبٌ جديدة إلى الشهرة والسلطان، هنا، في هذه الغرفة، هذه اللحظة؛ وستخلبُ بصيرتك أعجوبةٌ ستزعزعُ كفرَك بالشيطان."

"يا سيد،" قلت، مبدياً من البرود ما كنتُ في الحقيقة بعيداً عن التحلّي به،

"أنت تفوهُ بالطلاسم، و لربما لن تستغربَ أني أنصتُ إليك ولا أحفلُ بكلامك،وليس لديّ إحساسٌ قويٌّ بتصديقك. لكنني قد أوغلتُ بعيداً في سبيل خدماتٍ يتعذرُ تفسيرها، وحريٌّ بي ألا أتوقّفَ قبل أن أرى النهاية"

"نطقتَ الصواب"، أجابَ زائري." لانيون، تذكّر قَسَمَك و وجوبَ الكتمان: ما سيتلو ينضوي تحت خاتمِ مهنتنا سراً لا تبُحْ به. والآن، أنت يا مَنْ ارتبطتَ طويلاً بأشدّ وجهاتِ النظر جموداً وضيقاً، أنت يا مَنْ أنكرتَ فضيلةَ الطب المتسامي، أنت يا مَنْ استخففتَ بمعلميك ـ انظرْ!".

وضعَ الزجاجةَ على شفتيه واحتساها في جرعةٍ واحدة. صيحةٌ أعقبتْ؛ وراح يتلوّى ويتخبّط متشبّثاً بالمنضدة يرجُّها، محملقاً بعينين جاحظتين، لاهثاً بشدقين فاغرين؛ وفي أثناء ما كنتُ أنظر، خلتُ تحوّلاً ما قد طرأ ـ بدا لي كأنه ينتفخ، فأضحى وجهُه بغتةً أسودَ اللون، وبدت تقاطيعُه كأنها تذوبُ وتتبدّل.وفي اللحظة التالية قفزتُ ناهضاً على قدمي، وتقهقرتُ لأتكئ إلى الجدار أتّقي بذراعي المرفوعةَ تلك الأعجوبة، وخاطري يغمرهُ الهلع.

"ربّاه!" صحتُ، "ربّاه!" صحْتُ و صحت؛ فقُبالة ناظريّ هناك، كان يمثُل شاحباً ومنهوكاً، في نصف غيبوبةٍ يتلمّسُ بيديه ما أمامه كمثلِ رجلٍ عادَ من عالم الموت– هناك كان هنري جيكَل!

ما رواهُ لي، في الساعة التالية، ليس بمقدوري استجماعُ ذهني كي أخطَّهُ على الورق. قد رأيتُ ما رأيت، وسمعتُ ما سمعت، وإنّ روحي لتعيا بما رأت وسمعت؛ ومع ذلك، الآن وقد فارقتْ تلك الرؤيةُ عينيّ، أسأل نفسي تُراني أصدّقها، فلا أستطيعُ الجزم بالجواب. لقد ارتجّتْ حياتي من جذورها؛ جفاني النوم؛ الذعرُ الأشدُّ هولاً يلازمني ليل نهار طوال الساعات كلّها؛ أشعرُ بأن أيّامي باتت معدودة، وإني ميتٌ لا محالة؛ لكني سأموتُ مفعماً بالشكوك. فتلك الدناءةُ الأخلاقية التي أزاحَ لي ذاك الرجلُ نقابَها ودموعُ التوبة تغشى عينيه لا أستطيعُ استرجاعَها، حتى في ذاكرتي، بدون أن يجتاحني الرعب. لن أقولَ يا آترسون إلا شيئاً واحداً، وفيه (إذا ما تسنّى لعقلك أن يتقبّله) ما يزيدُ عن الكفاية. كان المخلوقُ الذي تسلّلَ إلى منزلي تلك الليلة، باعتراف جيكل نفسه، هو المعروفُ باسم هايد والملاحَقُ في سائر أرجاء المعمورة بصفته قاتلِ كارو.

هاستي لانيون

إفادة هنري جيكل الكاملة عن القضية

وُلدتُ سنة ١٨.. في بيت حظوةٍ تحت طالعٍ عظيمِ الفأل، وفضلاً عن هذا وُهبتُ خصالاً فاضلة: نزعتُ بطبعي إلى العمل، متلهفاً لنيلِ احترام الحكماء والأبرار بين سائر أقراني البشر؛ و هكذا، كما قد تتوقّع، توفّرت لي كلُّ ضمانة تنبيء بمستقبلٍ مشرّف ولافت للنظر. وفي الحقيقة، كان أفدحُ عيوبي نوعاً من الخفّة التي تستعجلُ تبوّأ المراتب واستبدالها، على غرار التبدلات التي تصنعُ سعادة الكثيرين، لكني، أو شخصاً في مثل حالي، استصعبتُ الانسجامَ مع رغبتي المستبدّة في أن أشمخَ برأسي عالياً، وأن أتلبّسَ أمام عامّة الناس مظهراً تفيضُ رزانتُه عن الحدِّ المتعارف عليه. مذاك اتّضحَ لي إنّي أُخفي مباهجي؛ ولما بلغتُ من العمرِ سنَّ الرشد، وطفقتُ أراقبُ ما حولي، وأتملّى مسيرتي ومكانتي في العالم، كنت محكوماً سلفاً بازدواجٍ عميق في الحياة. وكم من إنسانٍ تدرَّعَ من قبلُ اتّقاءً لمثل هذه المعاصي التي بتُّ مذنباً باقترافها؛ لكني، من المنظورِ العالي الذي رفعتُه نُصبَ عيني، تدبّرتُ الأمر وأخفيتُها وإحساسٌ مرهق بالعار يكاد أن يجلّلني. ولهذا السبب، فإن الطبيعة الرهيبة لتطلّعاتي - أكثرَ من أي انحطاط آخر في مثالبي - هي ما جعلتْ منّي ما صرتُه، ومع هوةٍ أعمقَ غوراً مما قد تصادفُه عند سواد البشر الأعظم، أجهزتُ في سريرتي على أقاليم الخير والشرّ تلك التي تقسمُ وتؤلفُ طبيعةَ الإنسان المزدوجة. وفي هذه الحالة، كنتُ مدفوعاً كي أتأمّل بعمقٍ ودأب القانونَ الجائر للحياة - ذاك الكامنَ في جذر الدين، وهو واحدٌ من أغزرِ ينابيعِ التعاسة. برغم هذا الازدواجِ

العميق بداخلي لم أكُنْ، ولا بأيّ شكل، مُرائياً؛ فكلا الجانبين كان جاداً في دأبه كلَّ الجدية؛ ما كنتُ لأعودَ أنا نفسي كلما نحّيتُ ممانعَتي جانباً لأتخبّطَ في العار، إلاّ إذا كدحتُ، في وضَحِ النهار، على المُضيّ بالمعرفة قدماً، وتخفيف الأسى والعذابات. وشاءت المصادفةُ أن وجهةَ دراساتي العلمية، التي أفضَتْ جميعاً صوب الغامض والمتسامي، تنشّطت وسلّطت ضوءاً قوياً على هذا الوعي الذي بي إزاء الحربِ الطويلةَ الأمد التي تدورُ رُحاها بين أعضائي. هكذا، وبمرور كل يوم، ومن جهتي عقلي كلتيهما، الأخلاقية منهما والفكرية، دنوتُ بوتيرةٍ لا تكلُّ من تلك الحقيقة التي أنزلَ بي اكتشافُها الجزئيَّ لعنةً أودَتْ بي إلى خرابٍ مُريع: حقيقة أنّ الإنسان ليس بشخصٍ واحد حقاً، إنما هو في الحقيقة شخصان اثنان. أقول اثنان لأن حال معرفتي لم تتخطَّ حدود تلك النقطة. سيعقبُني أشخاصٌ آخرون، وسيتجاوزني آخرون في المضمار ذاته؛ وسأجازفُ أنا بهذا الافتراض: إنّ الإنسان سيُعرَّف لاحقاً، تعريفاً مطلقاً في النهاية، بأنه محضُ هيكلٍ يقطنُه سكّانٌ متنوّعون ومتنافرون ومستقلّون. أما أنا، في الجهة التي تخصُّني، وبحكمِ طبيعة حياتي، فقد حُتِّمَ أن أتقدّمَ في اتجاهٍ واحد، اتجاهٍ واحد فحسب. فمن الجانب الأخلاقي، وفي شخصي أنا، تعلّمتُ التعرّفَ إلى الازدواجِ العميق والبدائيّ في الإنسان؛ رأيتُ ذلك في الطبيعتين اللتين تتآلفان في ساحة وعيي، وحتى لو قيلَ عنّي بأنّي أحدُهما، فما كان ليتسنّى لأحدٍ هذا القولُ لو لم أكُنْ أنا، في الصميم، الشخصين كليهما؛ ومنذ وقت مبكر، حتى قبل أن يخلصَ مسارُ اكتشافاتي العلميّة إلى هذه النقطة: كنتُ أشعرُ باحتمالِ وقوعِ مثل هذه المعجزة احتمالاً أكيداً، فقد تعلمتُ كيف أتملّى مغتبطاً فكرةَ انفصالِ هذه العناصر، و دَرجتُ على الاستغراق في هذا التأمّل، كأني هائمٌ في أحلامٍ يقظةٍ أعشقُها. وأسررتُ لنفسي،لو أُتيحَ لكلّ عنصرِ السكنى في هويةٍ مستقلّة منفصلة لاستراحتِ الحياة من كلّ الأعباء التي تثقلُ كاهليها؛ سيسلكُ الظالمُ سبيله الخاصَّ به مستريحاً من أمنياتِ وندمِ توأمه الآخر الأكثر استقامة منه؛ وللعادلِ أن يسيرَ ثابتَ الخطو وآمناً في دربهِ السامي، يُقدم على الأشياء الخيِّرة التي يجدُ فيها سعادته، ولن يعترضَه، عندئذٍ، خزيٌ وتوبةٌ استجرَّتهما يدا هذا الشرّير الغريب. كانت لعنةَ بني آدم أن تتواشجَ، على هذا النحو سوياً، هذه المتناثراتُ المتنافرة ـ أن يتصارعَ هذان التوأمان المتضادّان على الدوام في رحمِ الوعي الذي يتلوّى ألماً. فكيف افترقا إذن؟

كنتُ مستغرقاً في تأمّلاتي عندما، كما أسلفتُ، راح نورٌ جانبي يلتمع فوق

المسألة منبعثاً من طاولة المختبر. بدأتُ، على نحوٍ أعمقَ من كلّ المرات السابقة التي تحدّثتُ عنها، أدركُ رجفةَ اللامادية ـ العبورَ الشبيه بالضباب في هذا الجسد الذي يبدو في غاية المتانة ونحن فيه متأنّقين نسيرُ. اهتديتُ إلى بضعة عناصر لها المقدرةُ على رجٍّ وتمزيقِ دثار اللحم ذاك وكأنها ريحٌ تتلاعبُ بستائر رواق. لن أتوغّلَ عميقاً في هذا الفرعِ العلميّ من اعترافي، لسببين وجيهين. أولُهما، لأنني قد لُقّنتُ تعليماً يرى أنّ عبءَ حياتنا ولعنتَها سيظلُّ مُلقىً على عاتق الإنسان إلى الأبد؛ وكلّما حاولنا إزاحتَه عادَ ليُثقلَ علينا بوطأةٍ أشد غرابةً وهَوْلاً. ثانياً، كما ستثبتُ روايتي جليّاً، واحسرتاه!، لأن اكتشافاتي لم تكتملْ. وما اكتفيتُ آنئذٍ بالتعرّف إلى جسدي الطبيعيّ الذي ليس إلا ضوءاً ومحضَ انعكاسٍ لبعض القوى الدافقة التي تؤلّفُ روحي، بل سعيتُ إلى تركيب دواءٍ سيُنزلُ هذه القوى من عليا ء عرشها، ويستبدلها بسيماء ثانية ومظهرٍ آخر كان كلاهما طبيعيّين بالنسبة إليّ، لأنهما كانا التعبيرَ الحيّ عن العناصرِ السُّفلى في روحي موسومين بخَتْمها.

تردّدْتُ طويلاً قبل أن أضعَ هذه النظرية على محكّ الاختبار العمليّ. كنتُ أعرفُ جيداً الموتَ الذي يتهدّدني؛ فأيُّ دواءٍ بمقدوره أن يتحكّمَ بقوّته الهائلة ويدكّ كلَّ حصونِ الهويّة عند أضأل هفوةٍ تزيدُ من جرعته، أو أقلّ مصادفةٍ غير موفّقة لحظةَ تناوله، قد يقضي قضاءً مبرماً على ذاك الملاذ الفاني الذي كنتُ أصبو إلى تغييره. غير أن غوايةَ اكتشافٍ فريد بهذه الضراوة والعمق غلبتْ في النهاية وعيدَ التوقُّعات. كان قد انقضى وقتٌ طويل على تحضيري للدواء؛ فابتعتُ على الفور، من سلسلةٍ من مستودعات الصيادلة، كميةً كبيرة من ملحٍ معين كنتُ أعرف، بناءً على تجاربي، إنه المكوِّنُ الأخير المطلوب؛ و ذات ليلةٍ ملعونة، في وقتٍ متأخر، قمتُ بتركيب العناصر، وراقبتُها وهي تغلي في الإنبيق سوياً و تفور باثّةً الأدخنة؛ وعندما هدأَ الغليان، توقّدَ فيَّ الإقدامُ قويّاً فتجرّعتُ السائل.

أعقبتْ ذلك آلامٌ مبرّحة هي الأشدّ: طقطقاتٌ تطحنُ العظام، غثيانٌ رهيب، وهلَعُ الروح الذي ليس ثمّة ما هو أشدُّ منه حتى ساعةَ الميلاد أو ساعة الموت. ثم بدأتْ هذه الآلام تتخافت لتزولَ على عجل، وثُبْتُ إلى رشدي كأنني قادمٌ من أعماق داءٍ شديد. كان ثمة شيءٌ غريب يعتري أحاسيسي، شيءٌ جديد يفوقُ الوصف، ونظراً لجدّته الاستثنائيّة كان عَذباً عذوبة لا تُصدَّق. شعرتُ بجسدي أخفَّ وأسعدَ وأيفعَ سنّاً؛ وفي داخلي كنت أعي جسارةً عارمة، تياراً من النزوات و الصورِ الحسيّة

العشوائيّة يجري كقناة الرحى في خيالي: انعتاقاً من القيود ،حريةً للروح لم أعرفْها من قبل لكنها ليست حُريّة بريئة. عرفتُ نفسي، من الأنفاسِ الأولى لهذه الحياة الجديدة، بأني غدوتُ شريراً أكثر من ذي قبل، عشرةَ أضعاف ما مضى، عبْداً باعَ نفسَه للشرِّ المتأصّل فيّ؛ وعانقتني الفكرةُ في تلك اللحظة فانتشيتُ كأنها الخمرُ. مددتُ يدي، متلذّذاً بطزاجةِ هذه الأحاسيس؛ وفي هذه الأثناء فطنتُ بغتةً إلى قامتي التي تقاصرَتْ.

لم تكن في حجرتي وقتذاك أيّةُ مرآة؛ أما المرآة التي تنتصبُ إلى جواري إذ أكتبُ الآن فقد جُلبتْ إلى هنا لاحقاً، بُغيةَ مشاهدة تلك التحولات وحسب. على أية حال، كان الليل قد أدلجَ بعيداً صوب الصبح - و الصبحُ، على قتامته المعهودة حينئذ، يوشكُ أن ينضجَ فيولدَ النهار - وأهلُ بيتي أسارى هاجعون في أعمقِ ساعات النوم؛ فعقدتُ نيتي مزهواً آنذاك بالأمل والظّفْر، على الولوج مجازفاً بهيأتي الجديدة إلى غرفة نومي. قطعتُ الفناء، بينما الكواكبُ من بروجها تلقي بأنظارِها عليّ، ففكّرتُ متعجّباً بأني أولُ مخلوق من تلك السلالة تراهُ أعينُها التي لا تنام؛ تسلّلتُ خلل الممرات، غريباً في منزلي؛ ولدى وصولي إلى غرفتي، رأيتُ للمرة الأولى مظهرَ إدوارد هايد.

يتوجّبُ عليّ ههنا، في حديثي، الاقتصارُ على الجانب النظريّ فحسب. فلا أفوه بما أعرفه، بل بما أحسبه الاحتمالَ الأرجح. الجانبُ الشرّير من طبيعتي - الذي نقلتُ إليه الآن قوايَ الضارية - كان في تطوّره وعافية بدنه دونَ الجانب الخيّر الذي نحّيتُه للتوّ. لكنني، وفي مسارِ حياتي التي كانت بعدَ كلِّ هذا العمر حياةً تسعةُ أعشارها كُرِّسَ للجهد والفضيلة وضبط الأهواء، لم أجرِّبِ الشرَّ إلا قليلاً، ولم أستهلكْ من طاقته إلا الأقلّ. ولهذا، كما أعتقد، تبدّى إدوارد هايد أقصرَ قامةً من هنري جيكل، أرشقَ حركة وأيفعَ سناً. وإنْ كان الخير يشعُّ فوق وجهِ أحدهما، فإنّ الشرّ كان مكتوباً على وجه الآخر واضحاً وعريضاً. كما إن الشرّ (الذي لا بدّ لي من مواصلةِ إيماني بأنه الجانبُ المُهلك في الإنسان) قد خلّفَ على ذلك الجسد أثراً من التشوّه والشيخوخة. ولكن عندما وقع ناظراي على ذاك الوثنِ الدميم في المرآة لم يساورْني أيُّ اشمئزاز وإنما خلجاتٌ مرحّبة. هذا الوثنُ، أيضاً، كان أنايَ. بدا طبيعياً وإنسانياً، وفي عينيّ، متمتعاً بصورةٍ أجلى للروح كانت في صدقها و فرادتها تفوقُ الهيئةَ المنقسمة والمحكومة بالنقصان التي درجتُ حتى الآن على ادّعائها لنفسي.

وكنتُ بلا ريب مصيباً فيما ذهبتُ إليه. فقد تحقّقتُ من ذلك عندما تلبّستُ لبوسَ إدوارد هايد، فلم يقدرْ أحدٌ على الاقتراب منّي للوهلة الأولى بدون أن يتولّى جسدَه اضطرابٌ صريح. وهذا، بحسب اعتقادي، لأن الكائنات البشرية جمعاء، مثلما نصادفهم، مجبولون من الخير والشر: إدوارد هايد، نسيجَ وحدِه في سلالاتِ بني البشر، كان الشرُّ الخالص.

للحظةٍ فحسب احترتُ أمام المرآة: فالتجربةُ التالية والحاسمة كانت تنتظر منّي المحاولة؛ إذ بقيَ لي أن أرى هل ضيّعتُ هويّتي دونما رجعة، وعليّ آنئذٍ قبل بزوغِ الفجر الفرارُ من منزلٍ ما عادَ لي؛ ولمّا هرولتُ عائداً أدراجي إلى مكتبي، قمتُ مرة أخرى بتحضير الكوب وشربتُه، وقاسيتُ مرة أخرى عذاباتِ الذوبان المبرِّحة، وثُبتُ إلى رشدي مرة أخرى و ليَ شخصيةُ هنري جيكل وقامتُه ووجهه.

تلك الليلة، بلغتُ مفارقَ الدروبِ التي أودَتْ بحياتي. لو قاربتُ اكتشافي بروحٍ أنبلَ، لو جازفتُ بالتجربة في أثناء خضوعي لسلطانِ التطلّعات الورعة أو النزيهة لجرَت الأمورُ كلها مجرىً آخر، و لكنتُ، جراء آلامِ الولادة و الموت الممضّة هذه، قد أمسيتُ ملاكاً لا شيطاناً. لم يكنْ للدواء مفعولٌ يفرّقُ بين الحالتين؛ فما كانَ شيطانياً ولا إلهيّاً؛ وإنّما فقط يرجُّ أبوابَ الزنزانة التي حُبِسَتْ فيها طبيعتي؛ والمكبّلون في الداخل، كمثل أسرى فيليبي*، على أهبة الاستعداد كي ينطلقوا. كانت فضيلتي هاجعة آنذاك؛ شرّي الذي أبقاه الطموحُ متيقّظاً كان بارداً وخاطفاً في اقتناص الفرصة السانحة؛ والشيءُ الذي برز للعيان كان إدوارد هايد. لذلك، برغم أنّ لي الآن شخصيتين إلى جانب هيئتين مختلفتين، كان أحدُهما كليَّ الشر، وظلَّ الآخرُ هنري جيكل القديم، ذاك المزيجَ المتنافر الذي خلصتُ للتوّ إلى اليأس من إصلاحه وتحسينه. وهكذا، كانت الحركة بمجملها تتدهورُ نحو الأسوأ.

حتى ذلك الوقت، ما كنتُ قد تغلّبتُ بعد على نفوري من جفاف الحياة الدراسية. كنتُ ما أزال أبتهجُ بالتحوّل أحياناً؛ ولمّا كانت ملذاتي (وهذا أقلُّ ما يُقال) تمرّغني، ولمّا رحتُ أكبُر بالسنّ لأغدو الرجلَ الكهل وليس الذائعَ الصيت والمبجَّل تبجيلاً عالياً فحسب، فقد باتَ هذا التفكُّك في حياتي،مستفحلاً يوماً تلو يوم، مدعاةً للمزيد من النفور. وبدا، من هذه الناحية، كأن سلطاني الجديد قد أغواني حتى استرقّني. ما كان لي سوى ارتشاف الكوب كي أطرح عني، على الفور، جسدَ البروفيسور المرموق، لأرتدي، كمثل دثارٍ سميك، جسدَ إدوارد هايد. ابتسمتُ لهذه

الملاحظة؛ فقد بدَتْ لي حينئذ مسلّيةً قليلاً؛ وقمتُ بتحضيراتي متوخّياً من الحرص أشدّه. اشتريتُ وأثّثتُ ذاك المنزل في سوهو حيث تعقّبتْ الشرطةُ آثارَ هايد؛ واستخدمتُ كمدبّرةٍ للمنزل مخلوقةً أعرفُ جيداً إنها ستلزمُ الصمت ولن تفشيَ شيئاً. ومن جهة أخرى، أخطرتُ خدمي بأنّ مستر هايد (الذي وصفتُه لهم) له «مطلقُ الحرية والسلطان في أرجاء منزلي في الساحة؛ وتلافياً لأيّ طارئ رحتُ أتردّدُ على داري في شخصيتي الثانية وأسعى لأجعلها شيئاً مألوفاً. ودبّجتُ، تالياً، تلك الوصيةَ التي كان اعتراضُك عليها شديداً؛ فلو لحقَ بي أيُّ مكروه يتعلّقُ بشخص دكتور جيكل سأستطيعُ انتحالَ ما للمستر هايد دون أنْ أتكبّدَ من الخسرانِ الماديّ ما يُؤْبَهُ له. ولما تحصّنتُ من كل الجهات كما ظننتُ، شرعتُ بالاستفادة من الحصاناتِ الغريبة التي تخوّلني إياها منزلتي.

كان الناس فيما مضى يستأجرون القتلة لاقترافِ الجرائم نيابةً عنهم، بينما تقبع شخصيتهم وسمعتهم في مأمنٍ خفيّ. كنتُ أنا أولَ منَ أقدمَ على الجريمة إرضاءً لمتعه الخاصة. و هكذا، كنتُ أولَ شخص بمقدوره أن يملأ أعينَ الناس مُختالاً و مُثْقلاً بسخيٍّ التبجيل، وفي لحظةٍ، كمثلِ صبيٍّ في مدرسة، أمزّقُ هذه الأواصرَ المستعارة وأنطلقُ قدماً لأخوض بحرَ الحرية. أما بالنسبة إليّ، في إهابيَ الذي لا سبيلَ لاختراقه، فكان الأمانُ مطلقاً. فكّرْ بي - لم أكُنْ موجوداً قطّ! لم يبقَ لي سوى الفرارُ إلى باب مختبري، فأمنحني ثانية أو ثانيتين كي أمزجَ وأبتلعَ ذاك الشرابَ الذي أبقيتُه على الدوام جاهزاً؛ فكان إدوارد هايد، مهما كانت الأفعال التي اقترفها، يتلاشى كمثلِ أثرِ الأنفاس على مرآة؛ وهناك في مكانه السالف، هادئاً في البيت، مُورجحاً فانوسَ منتصف الليل في حجرة دراساته، سيكون رجلٌ لن يتمالكَ نفسه من الضحك إذا ساورته الشكوك، هذا الرجل هو هنري جيكل.

اللذاتُ التي استعجلتُ نيلَها وأنا متنكّر، كما أسلفتُ، كانت مُخزية؛ وقلّما استخدمتُ عبارةً أقسى من هذه. لكن هذه اللذات، بين يدي إدوارد هايد، ما لبثت تنقلبُ انقلاباً وحشياً. وكلّما عدتُ أدراجي من هذه النزهات كنتُ أتعذب، غالبَ الأحايين، وفي نوعٍ من الاستغراب، إزاء فساد طبعِ أتجشّمُه عن سواي. هذا الشخصُ الأليف الذي أناديه من قرارة روحي، وأطلقهُ بمفرده كي يستمتعَ بلذائذه الخيّرة، كان مخلوقاً حقوداً بطبعه، مؤذياً و شرّيراً بالفطرة؛ فكلُّ فعلٍ من فعاله وكل فكرةٍ من أفكاره تتمركزُ حول أناهُ؛ ينهلُ الملذاتِ في نهمٍ وحشيّ متنقّلاً من أية درجة للعذاب

إلى أخرى؛ لا يكلّ كرجُلٍ قُدَّ من حجَر. أحياناً، كان هنري جيكل يلبث مشدوهاً أمام أفعال إدوارد هايد؛ لكن موقفه كان مفصولاً عن القوانين الاعتيادية، ممّا أرخى قبضةَ ضميره إرخاءً خبيثاً. كان هايد، بعد كلّ ما جرى، و هايد وحده، هو المذنب. لم ينَلْ جيكل أيُّ سوء؛ فقد استفاقَ من جديد مسترداً خصالَهُ الحميدة التي يبدو أنّ الوهن لم يُصبْها؛ فتراهُ يسعى على عجل، إذا ما تسنّى له، كي يمحوَ الشرَّ الذي يقترفه هايد. وهكذا يرتاحُ ضميره ويغفو.

لا مخطَّطَ لديّ للدخول في تفاصيلِ هذا العار الذي غضضتُ الطرفَ عنه هكذا (لأنني حتى الآن أكادُ لا أقوى على تصديقِ إنني اقترفتُه). لكني أريد أن أبيّن المحاذيرَ والخطوات التالية التي دنوتُ بها من بليّتي. جرى معي حادثٌ سأذكرهُ سريعاً لأنّه لم يرجعْ عليّ بأيّة عاقبة. كان فعلاً شنيعاً بحقِّ طفلةٍ استنهضَ ضدّي حنقَ أحد العابرين تعرّفتُ في شخصه اليومَ التالي على قريبك؛ وانضمَّ إليه الطبيب و ذوو الطفلة؛ ومرّت لحظاتٌ خشيتُ فيها على حياتي؛ وفي نهاية المطاف، في مسعاه كي يهدّيءَ من سخطهم المُصيب كلَّ الصواب،كان على إدوارد هايد أن يصحبَهم إلى الباب، ويسدّدَ لهم صكاً مسحوباً باسم هنري جيكل. لكن ما أهونَ إزالةَ هذا الخطر في المستقبل من خلال فتح حسابٍ في مصرف آخر باسم إدوارد هايد نفسه؛ ولمّا زوّدتُ قريني بإمضاءٍ خاص به عبر إمالةِ يدي إلى الخلف، ظننتُ إني سأتوارى بمنأى عن يدِ القدر.

قبل مصرعِ سير دانفرز بحوالي شهرين،كنتُ خارجاً في واحدة من مغامراتي. عدتُ في ساعة متأخرة، واستفقتُ اليوم التالي في السرير تخامرني أحاسيس غريبة قليلاً. عبثاً تلفّتُّ ناظراً حولي؛ عبثاً استطلعتُ الأثاثَ الفاخر ورحابةَ غرفتي المطلّة على الساحة؛ عبثاً تعرّفتُ إلى تصميمِ ستائر السرير ورسومِ إطاره المقدود من خشب الماهوغاني؛ كان ثمة شيءٌ مافتئ ملازماً لي يلحُّ بأنني لم أكُنْ حيث اعتدت، ولم أستيقظْ حيث يُفْترض بي الاستيقاظ، فقد وجدتُني في الغرفة الصغيرة في سوهو حيث اعتدتُ على النوم في جسدِ إدوارد هايد. ابتسمتُ لنفسي، وجرياً على طريقتي في التحليل النفسي، شرعتُ متكاسلاً أستفسرُ وأنقّبُ عن عناصرِ هذا الوهم؛ وأحياناً، حتى عند قيامي بهذا، يغشاني من جديد وسنٌ صباحيٌ مُفعم بالطمأنينة. كنتُ ما أزال ساهياً عندما، في واحدةٍ من لحظاتي الأشدّ تيقُّظاً، وقعتْ عيني على يدي. والآن، كانت يدُ هنري جيكل في حجمها وشكلها (كما لاحظتَ مراراً) هي يد

طبيب يتقنُ مهنته؛ يداً كبيرة متينة، بيضاء وجميلة. أما هذه اليد التي أراها الآن، واضحةً بما فيه الكفاية تحت الضياء الأصفر الباهت للصباح في وسط لندن، راقدةً في نصف إطباقة على ملاءات السرير، فكانت ملتويةً، مفتولة، بارزةَ البراجم، ذات لون غسقيّ شاحب، ويغطّيها ظلٌّ كثيف من شعرٍ داكنٍ وافرِ النمو. كانت يدَ إدوارد هايد.

لابدّ إني ما برحتُ أحدّقُ باليد قرابةَ نصف دقيقة، غارقاً في حالة خالصة من الذهول الأخرق، قبل أن يستيقظَ الذعرُ في حناياي مباغتاً ومروِّعاً كقرْعِ الصنوج؛ ولمّا وثبتُ من سريري هُرعتُ إلى المرآة. لمرأى ما لاقتْهُ عيناي استحالَ دمي شيئاً متجمّداً ورقيقاً رقّةَ الجليد. بلى، لقد أويتُ إلى الفراش وأنا هنري جيكل، فإذا بي أستيقظ وأنا إدوارد هايد. كيف لي أن أفسّر هذا؟ ساءلتُ نفسي؛ ثم، في وثبة ذعرٍ أخرى- كيف سأعالجه؟ كان قد انقضى شطرٌ من الصباح فاستفاقَ الخدمُ وكلُّ عقاقيري في غرفة المكتب- مما يستلزمُ رحلةً طويلة تبتدىء من حيث كنتُ واقفاً حينذاك والهلعُ بادٍ عليّ، فأهبط سلّمين من الأدراج قاطعاً الممرَّ الخلفي، عبر الفناء المفتوح، لأجتازَ مسرحَ التشريح. وفي الواقع، كان بوسعي أن أغطّي وجهي؛ لكن ما الجدوى ما دمتُ عاجزاً عن إخفاء التبدّل الذي أصابَ قامتي؟ و عندئذ تنفّستُ الصعداء ارتياحاً، فقد تذكّرتُ إنّ الخَدم قد اعتادوا من قبل على شخصي الثاني في جيئته ورواحه. فهَممتُ بارتداء ثيابي مُسرعاً، محسناً قدر المستطاع في انتقاء ما يناسبُ حجمي؛ ثم اجتزتُ الدار مهرولاً، حيث حملقَ بي براد شو و نكص مُجفَلاً لمرأى مستر هايد في مثل هذه الساعة وفي مثل هذا اللباس الغريب؛ وبعد عشر دقائق كان دكتور جيكل قد استردّ سالفَ هيئته، جالساً إلى المائدة مكفهرَّ الوجه، وهو يتظاهر بأنه يتناول فطوره.

زهيدةً، في الواقع، كانت شهيتي للطعام. فهذا الحادث المتعذر تفسيرُه، هذا الانقلابُ الذي طرأ على تجربتي السابقة تبدّى شبيهاً بالإصبع البابلي الذي يتقرّى الحائط مُتهجّئاً حروفَ مصيري؛ وشرعتُ بمزيدٍ من الجدية، يفوق ما مضى، أتملّى شؤونَ وجودي المزدوج واحتمالاته. فذاك الجزءُ منّي الذي كان لي السلطانُ على إبرازه قد ازداد مراناً وازدهرَ في الآونة الأخيرة، حتى بدا لي جسمُ إدوارد هايد قد استطالت قامتُه، كأنني (إذا ارتديتُ تلك الهيئة) أحسُّ الدماء بداخلي تتدفّقُ بزخمٍ أشدّ؛ وبدأتُ أتحرّى نذيراً - إذا استطال هذا الوجَلُ مديداً - بأن توازنَ طبيعتي قد يتداعى

إلى الأبد، وربما تضعفُ مقدرة التحول الإراديّ وتضيعُ منّي، فتُمسي شخصيةُ إدوارد هايد إلى غير رجعةٍ شخصيّتي أنا. كما لم تُظهرْ قوّة الدواء المفعولَ نفسه دائماً؛ فقد خذلني، ذات مرة، خذلاناً تاماً في بواكير تجاربي؛ فاضطررتُ مذّاك، أكثر من مرة، إلى مضاعفة الكمية؛ بل حدث مرةً أنْ زدتُها ثلاثاً فشارفتُ على خطرِ الموت؛ وألقتْ هذه الشكوك النادرة منذ ذلك الحين بظلّها الأوحد على سكينتي. غير أنني الآن، في ضوء حادث ذلك الصباح، لاحظتُ أنّ الصعوبةَ في البدء كانت أن أطرحَ عني جسدَ جيكل، ثم انتقلَتْ بالتدريج في الآونة الأخيرة انتقالاً حاسماً إلى الجانب الآخر. ولهذا كانت الأمورُ قاطبة تبدو كأنها تشيرُ إلى هذه النقطة: كنتُ، في بطء، أفقدُ زمامَ نفسي الأصليّة والأفضل لأصيرَ، في بطء، متقمّصاً نفسيَ الثانية، وهي شرٌّ من الأولى.

كان عليَّ الآن، كما أحسستُ، أن أختارَ بين الاثنتين؛ فهاتان الطبيعتان تشتركان في الذاكرة، أمّا سائرُ الخصال الأخرى فقد توزّعتْ بينهما على نحوٍ لا تكافؤَ فيه. كان جيكل (مزيجُ كليهما) تارةً بمداركه القلقة التي بلغتْ ذروةَ رهافتها، وطوراً بنهمه الجشع، يرسمُ الخطط ويقاسمُ هايد ملذاته ومغامراته؛ أمّا هايد فكان لا مبالياً إزاء جيكل، أو بالأحرى يتذكّره كما يتذكّرُ قاطعُ الطريق في الجبل المغارةَ التي يتوارى فيها عن مطارديه. كانت لجيكل رعايةُ الأب، و لهايد عدمُ اكتراث الابن. فإلقائي بأوراق حظوظي مع جيكل يعني أن أموتَ ملهوفاً إلى تلك اللذائذ التي انغمستُ فيها سراً منذ أمدٍ طويل، وبتُّ آلفها مُؤخّراً؛ أما إذا ألقيتُها إلى هايد فسأموتُ ملهوفاً إلى ألف مطمحٍ وأمنية لأصيرَ، بضربةٍ واحدة وإلى الأبد، منبوذاً بغير أصدقاء. قد تبدو هذه المفاضلةُ غير متكافئةٍ في ظاهرها؛ لكن ثمة اعتبار آخر يبقى في الميزان؛ ففي حين سيُقاسي جيكل عذابَهُ في نيران الزُّهد لن يعيَ هايد حتى سائرَ ما فقده. وفي ظروفٍ غريبة شبيهةٍ بما ألمَّ بي، أرى موضوعَ هذا الجدل معروفاً وقديماً قدمَ الإنسان؛ فكثيرةٌ هي الدوافعُ و المُوبقات والمحاذير المماثلة التي تلقي بظلّ الموت على أيّ خطّاءٍ يرتعدُ وقد أغوتْهُ الخطيئة، فتصادفَ أني، كما يحصلُ مع السواد الأعظم من زملائي، اصطفيتُ الجانب الخيّر و انتهجتُه فوجدتُني أفتقدُ القوة كي أحافظَ عليه.

أجل، لقد آثرتُ الطبيبَ المكتهل المتذمّر، المحفوفَ بالأصدقاء والمغتبطَ بآمالٍ شريفة؛ وودّعتُ الحرية وداعاً أخيراً، ودّعتُ الشبابَ النسبيّ وخفّةَ الخُطى و الخفقات المتواثبة والملذات السريّة التي كنتُ أستمتعُ بها متنكّراً في زيّ هايد. ربما أقدمتُ على هذا الاختيارَ بشيءٍ من التحفُّظِ غير الواعي، فأنا لم أخلِ المنزلَ في سوهو، ولا

أتلفتُ ثيابَ إدوارد هايد التي ما تزال جاهزة في غرفة مكتبي. لكني ظللتُ،طوال شهرين، وفيّاً لقراري؛ لشهرين كاملين عشتُ حياةً بالغة التزمُّت على نحوٍ لم أعهدْ له مثيلاً من قبل، واستمتعتُ بعطايا ضميرٍ مُفعم بالرضا. غير أن الوقت راح أخيراً يبدّد نضارةَ وساوسي وأمستْ مدائحُ الضمير أمراً اعتيادياً؛ ما فتئت الشهواتُ والنزوات تبرّحني، كأنّ هايد يكافحُ سعياً إلى الحرية؛ وفي خاتمة المطاف، في ساعة ضعف أخلاقيّ، قمتُ مرة أخرى بتركيب الدواء الذي يحوّلني وتجرّعتُه.

لا أظنُّ أنّ السكّير حين يجادلُ نفسه بخصوص رذيلته يتأثّرُ إلا مرة كل خمسمئة مرة حيال الأخطار التي يجوبُها أثناء الانعدام الضاري لإحساسه الجسديّ؛ ولا أحسبني، بعد طول تأمُّلٍ في مكانتي، ألتمس عُذراً لتبرير هذا الانعدام المطلق للحسّ الأخلاقيّ، ولذاك النزوعِ المتأهّب للشرّ المشارف على الجنون، وهما الخصلتان المهيمنتان على إدوارد هايد. بيد أني عُوقبتُ بجريرة هذه الصفات؛ فقد مكثَ شيطانيْ حبيساً لوقت طويل، فأطلَّ من قفصه وهو يزأر. كنتُ أحسُّ، حتى عندما أتناول الدواء، باندفاعٍ إلى المعصية أشدَّ ضراوةً وجموحاً؛ ولابد إن هذا الاندفاع، كما أظنُّ، هو ما زويعَ في روحي تلك العاصفةَ من نفاد الصبر التي أصغيتُ ملياً خلالها إلى توسّلات ضحيتي التعسة؛ وإني لأعترف على الأقلّ، أمام الله، بأنه ما منْ أحدٍ سويّاً أخلاقياً كان سيُتّهم بتلك الجريمة التي ارتُكبت جرّاء دافعٍ صغير يبعثُ على الشفقة؛ وما كنتُ لأنطلقَ بتلك الروح التي تفتقدُ المنطق أكثر مما يفتقدهُ طفلٌ مريض قد يكسرُ ألعوبته. لكنني، بمحض مشيئتي، جرّدتُ نفسي من كلّ تلك الغرائز المتّزنة التي يواصل بواسطتها، حتى أسوأنا خلقاً، سيرَه بشيءٍ من الثبات في خضمّ الغوايات؛ وفي حالتي أنا كانت الغوايةُ، مهما تفهَتْ، هي السقوط.

للتوّ استيقظتْ بداخلي روحُ الجحيم واستعرَتْ. بنقّلاتٍ جَذلى كنت أهشّمُ الجسدَ الذي لا حولَ له ولا قوة، مُلتذاً بكل ضربة أسدّدها؛ وظللتُ أضربُ حتى بدأ العياءُ ينالُ منّي، فذُعرتُ، على حين غرة، وأنا في أوجِ هذياني، وقبضَ الذعرُ قلبي في ارتعادةٍ باردة ضَبابُ انقشع؛ فرأيتُ حياتي عُرْضةً للأخطار؛ ففررتُ من مسرحِ هذه الفظائع، مزهواً و مرتجفاً في الوقت نفسه، شهوتي للشرّ ارتوتْ وتحفّزت، وعشقي للحياة مُسمَّرٌ إلى شاهقِ الأوتاد. عدوتُ إلى المنزل في سوهو، و(كي أوقنَ أتمّ اليقين) أتلفتُ أوراقي؛ ومن ثم انطلقتُ عبر الشوارع المستضيئة بالمصابيح، في نشوةِ العقل المنقسم إياها، مغتبطاً بجريمتي، خفيفَ الخاطر أخطّطُ لجرائمَ أخرى في

المستقبل، غير أني ما برحتُ أغذُّ الخطو، و ما برحتُ أرهفُ السمعَ في إثري متوجّساً خطى المنتقم تتناهى إليّ. كانت ثمة أغنيةٌ تترددُ على شفتي هايد عندما قام بتركيب الدواء وتجرّعهُ رافعاً نخبَ الرجل الميت. وما إنْ راحت أوجاعُ التحول تمزّقُ أحشاء هنري جيكل وأدمُعُ الندم والامتنان تنحدرُ على وجنتيه، حتى خرَّ على ركبتيه جاثياً ورفعَ إلى الله قبضتيه الضارعتين. تمزّقَ من الرأس إلى القدم نقابُ الشهوات المطلقة العنان، فرأيتُ حياتي بأسرها: تتبّعتُها من أيام الطفولة حينما كنتُ أمشي ممسكاً بيد أبي، عبوراً بمشقّات حياتي المهنية وما فيها من نكرانٍ للذات، ريثما أصلُ، مرةً تلو أخرى، عند حلولِ المساء بفظائعه اللعينة، إلى الإحساسِ إياه بانعدامِ الواقع. أوشكتُ أصيحُ عالياً؛ سعيتُ بالدموعِ والصلوات لعلّي أخفّفُ من غلواءِ هذا الحشد من الأخيلة والأصوات البشعة التي اكتظّتْ بها ذاكرتي ضدّي؛ ومع ذلك، بين الفينة والفينة، كان الوجهُ الدميم لإثمي يطلُّ محدّقاً في روحي. ولمّا راحت حدّةُ هذا الندم تتخافت، أعقبَهُ إحساسٌ بالسرور. لقد حُلّتْ مُعضلةُ تصرُّفاتي ـ مذاك الحين أمسى هايد مُحالاً لي؛ وسواء شئتُ أو أبيت، فقد بتُّ الآن مقتصراً على الجانب الخيّر من وجودي و، آه، لكم أبتهجُ كلّما فكرتُ به! بأيِّ امتثالٍ طوعيّ عدتُ لأعانقَ من جديد حدودَ الحياة الطبيعية! بأيِّ استسلامٍ مخلص أقفلتُ البابَ الذي لطالما دخلتُ منه وخرجتُ، وهشّمتُ المفتاحَ بعَقْبِ حذائي!

في اليوم التالي ذاعَ نبأ أنّ الجريمة قد شُوهدت، وافتضحَ جُرمُ هايد على الملأ، فالضحيةُ رجلٌ مرموق في السلّم الاجتماعي. ما كان الحادثُ مجرّد جريمة، بل طيشاً مُؤسياً. و أظن إنني ابتهجتُ حين عرفتُ ذلك؛ وأظنني سُررتُ لأن خصالي الحميدة قد تحصّنَتْ على هذا النحو، محروسةً بمخاوف الشنق. فأمسى جيكل الآن مدينتي التي ألوذُ بها؛ ولو أطلَّ هايد متلصّصاً للحظةٍ واحدة لارتفعتْ أيدي الناس كلّهم لتلقي عليه القبض وتقتلَه.

عزمتُ في مسلكي المستقبلي أن أكفّرَ عن الماضي؛ وبمستطاعي أن أقول، مخلصاً في قولي، إن نيّتي قد أثمرَت عن شيءٍ من الخير. فأنتَ نفسك على درايةٍ بالدأبِ الذي تفانيتُ في بذله كي أخفّفَ العذابات في الأشهر الأخيرة من العام الماضي؛ وأنتَ تعلمُ كم بذلتُ الكثير في سبيل الآخرين، وإنّ الأيام انقضت في هدوء و كنتُ مغتبطاً بنفسي. حقاً، لا أستطيع القول إني تعبتُ من هذه الحياة البريئة والنافعة، بل، عوضاً عن ذلك، أظنني ازددتُ تمتّعاً بها كلّ يوم؛ لكني ما برحتُ

ملعوناً بازدواجيّة غاياتي؛ ولمّا تداعَت حدّةُ ندمي الأول فإنّ الجانبَ الأحطُّ من نفسي الذي أطلقتُ له العنان طويلاً ورزحَ مُكبّلاً بالسلاسل مؤخّراً، راح يزمجرُ مطالباً بالخروج. لا لأنني حلمتُ بإعادة هايد إلى الحياة؛ فمحضُ تلك الفكرة كفيلٌ بأن يُجفلني إلى حدّ الجنون؛ كلا، فقد أغواني حافزٌ ما في شخصي أنا كي أعبثَ بضميري مرة أخرى؛ وكان ما اقترفتُه هو ما يقترفهُ في السرّ أيُّ خطّاء عادي، حتى تهاويتُ في النهاية أمام ضربات الغواية.

كما تدركُ النهايةُ كلَّ شيء، أخيراً يمتلئ أوفرُ الموازين استيعاباً؛ وهذا الاستسلامُ القصيرُ الأمد منّي لجانب الشرّ فيّ، خلخلَ، في خاتمة المطاف، توازنَ رُوحيْ. ومع ذلك ما تولاّني الفزعُ؛ بدا السقوطُ طبيعياً، كأنه عودةٌ إلى الأيام الخوالي قبل أن أعثرَ على اكتشافي. كان نهاراً من نهارات كانون الثاني، صحواً وبهيّاً، الأرضُ بليلة تحت الأقدام حيث ذابَ الصقيع، وفي الأعالي السماءُ خُلْواً من الغيم، وحديقةُ ريجنت تضجُّ بزقزقات عصافير الشتاء وتتضوّعُ بروائح الربيع الحلوة. جلستُ على مَقعدٍ في الشمس؛ والحيوانُ الثاوي في أعماقي يلعَقُ بقايا ذاكرتي؛ الجانب الروحيُّ منّي يغشاهُ النعاسُ قليلاً، مبشّراً بالتوبة لاحقاً، لكنه لمّا يحرّكْ ساكناً للشروع بكفّارته. استخلصتُ، بعد كل هذا، أنني شبيهٌ بجيراني؛ وابتسمتُ حينذاك، مقارناً نفسي بغيري من البشر، ومقارناً حُسْنَ الطوية النشط لديّ بقسوة إهمالهم الكسول. وفي اللحظة إياها التي أفعمتني فيها تلك الفكرةُ بالزهو، دهمني دوارٌ غشَتْ به نفسي غشياناً مريعاً وأخذتني رعدةٌ مُهلكة. ثم انقضَتْ هذه العوارض وتركتني مُوهَن القوى؛ ومن ثم، لمّا انحسر بدوره هذا الوهن، بتُّ مدركاً لتحوُّلٍ ما في مجرى أفكاري، فإذا بالجسارة تعاظمت استهتاراً بالمخاطر، وانفصمت العُرى في روابط الالتزامات. ألقيتُ بنظري نحو الأسفل؛ فإذا بثيابي الفضفاضة تتدلّى مهلهلةً من أوصالي المنكمشة؛ واليدُ التي استراحت على ركبتي كانت نافرةَ العروق ومكسوّةً بالشّعر. مرة أخرى كنتُ إدوارد هايد. قبل لحظةٍ كنتُ مستأمناً احترامَ سائر الناس، ثريّاً ومحبوباً ـ غطاءُ المائدة مبسوط لأجلي في غرفة الغداء بدارتي؛ والآن أمسيتُ أحطَّ بني البشر، رجلاً طريداً، مُشرّداً، قاتلاً معروفاً، عَبْداً للمشنقة.

تبلبلَ عقلي لكنه لم يخذلني تماماً. سبق أن لاحظتُ، أكثر من مرة، عندما أتلبّسُ شخصي الثاني، إنّ مَلَكاتي تبدو مشحوذة إلى أقصى حد وحواسي أشدّ مرونة؛ هكذا اتّضح لي، حين استسلم جيكل على الأرجح، إن هايد قد استنهضتْهُ

أهميةُ اللحظة. كانت عقاقيري في درجٍ من خبايا مكتبي، فكيف أصلُ إليها؟ ذاك هو المأزقُ الذي (ساحقاً صُدغيّ بيدي) عقدتُ العزم كي أحلّه. لقد أوصدتُ باب المختبر، فإذا جازفتُ بولوجٍ منزلي سيسلّمني خدمي إلى المشنقة. ارتأيتُ أن عليّ استخدام يد أخرى، وفكرتُ في لانيون. كيف الوصولُ إليه؟ ما السبيلُ لإقناعه؟ ولو نجوتُ من الاعتقال في الشوارع، فكيف كنتُ سأشقُّ طريقي إلى حضرته؟ وكيف لي، أنا الزائرَ المجهول والبغيض، أن أستدرجَ الطبيبَ الألمعيّ ليمحّصَ دراسةَ زميله، هنري جيكل؟ وتذكّرتُ حينئذ أنه قد بقيت لي من شخصيتي الأصليّة خصلةٌ وحيدة: أستطيعُ الكتابة بيدي أنا؛ ولما فطنتُ إلى تلك الشرارةِ الوامضة استنارَ - من أقصاهُ إلى أقصاه - الطريقُ الذي يجب أن أسلكه.

ثم هندمتُ لباسي على خيرِ وجهٍ استطعته، واستوقفتُ بندائي عربةً مارّةً انطلقت إلى فندقٍ في شارع بورتلاند تذكرتُ اسمه بمحض المصادفة. ولمرآي (الذي كان، في الواقع، مضحكاً بما فيه الكفاية، برغم كلّ الحقائق المفجعة التي تسترها هذه الثياب) لم يتمالك الحوذيُّ إخفاءَ جذله. فصررتُ على أسناني ناقماً كالشيطان، فزايلتِ الابتسامةُ وجهه، وابتهجتُ - لحُسنِ طالعه - بما رأيتُ منه، لكني - لحسن طالعي - ازددتُ ابتهاجاً بنفسي، لأنني في لحظة أخرى كنت سأجرّه بالتأكيد من مقعده. وفي النُزل، إثر دخولي، رحت أنقّل بصري حولي بسحنة مكفهرّة حتى ارتعدَ الخدم الحاضرون، فلم يتبادلوا فيما بينهم نظرة واحدة طوال مكوثي؛ لا بل أذعنوا لأوامري بحذافيرها، فساروا بي إلى غرفة خصوصيّة، وجاؤوني بكرّاسةٍ لأدوّنَ فيها. كان هايد في الخطر الذي أحدَقَ بحياته مخلوقاً جديداً بالنسبة إليّ: يتآكله حنَقٌ رهيب، مهووساً إلى حدّ القتل، متشوّقاً إلى إيلام الآخرين. غير أن هذا المخلوق كان ماكراً قوياً يستطيع مُداراةَ سخطه بمجهودٍ عظيم من الإرادة؛ وانكبّ يدوّن رسالتيه الهامّتين، إحداهما للانيون والأخرى لبول؛ وكيما يحوزَ دليلاً ملموساً على إرسالهما بالبريد، فقد بعثَ بهما مزوّدتين بتوجيهاتٍ تفيدُ بوجوب تسجيلهما.

وفيما بعد، أمضى سحابة نهاره جالساً إلى جوار النار في الغرفة الخصوصية، وهو يقضم أظافره؛ هناك تناول غداءه منفرداً بمخاوفه، وأمام ناظريه ترتعد فرائص النادل؛ ومن ثم، عندما أطبق الليل سُدوله، اكترى عربة مغلقة اقتعدَ زاويتها، وانطلقتْ به هو، تجوبُ شوارع المدينة رواحاً ومجيئاً. هو، أقولُ - لأنني عاجزٌ عن قول أنا. ذاك الطفل الجهنميّ لم يمتّ إلى البشر بأية صلة، وما من شيءٍ سكنَ دخيلته

غير الضغينة والخوف. وعندما توجّسَ في النهاية إن الشكوك قد بدأت تساور الحوذيّ، ترجّل من العربة وجازف بالسير على قدميه، لابساً ثيابه الفاخرة التي لا تليقُ به، كعلامةٍ فارقة تستوعي الملاحظة وهو يشقُّ نهجاً بين المارة الليليين، وهاتان العاطفتان الجوهريتان تصطخبان في قرارته كالعاصفة. غذّ مسيره ومخاوفه تطارده، مدمدماً في هذر لنفسه، وهو يتوارى خللَ أقلّ الشوارع اكتظاظاً، مُحصياً الدقائقَ التي ما تزال تفصله عن انتصاف الليل. ولما استوقفتْهُ امرأةٌ و حادثتْهُ عارضةً عليه، فيما أعتقد، علبةَ ثقاب، صفعها على وجهها فلاذت بالفرار.

في منزل لانيون، حين عدتُ أنا نفسي، ربما ترك فيّ ذعرُ صاحبي القديم أثراً لا يُستهان به: لستُ أدري؛ لكن ذُعره لا يعدو قطرةً في بحرِ الاشمئزاز الذي أتلفّتُ به إلى الوراء ناظراً هذه الساعات. تحولٌ ما استحوذني. ما عدتُ أخافُ المشنقة، بل بتُّ مذعوراً من كوني أنا هايد الذي يبرّحني.قد تلقّيتُ بعضاً من لعنة لانيون في حلم؛ وفي حلمٍ آخر عدتُ أدراجي إلى دارتي وأويتُ إلى الفراش. نمتُ بعد عياء النهار نوماً عميقاً ملازماً لم تتجاسرْ على انتهاكه حتى الكوابيسُ التي استبدّت بي. استيقظتُ في الصباح خائراً موهنَ القوى، ولكن منتعشاً. ما أزال أمقتُ وأهابُ فكرةَ الوحش النائم في أعماقي، وما نسيتُ بالطبع المخاطرَ الرهيبة لليوم الفائت؛ لكنني كنتُ في البيت مرة أخرى، في دارتي و إلى جوار عقاقيري؛ والسكينةُ التي أسبغتْها عليّ نجاتي تشعُّ في روحي إشعاعاً مُبهراً يكاد يُضاهي ألقَ الأمل.

كنت أذرعُ الفناء خالي البال بعد الفطور، وأنا أستنشقُ في حبورٍ برودةَ الهواء، حين داهمتني مرة أخرى تلك الأحاسيسُ العصيّة على الوصف التي تستبقُ التحوّل منذرةً به؛ وكدتُ لا أجدُ الوقت كي ألوذ بمأوى مكتبي قبل أن أستشيطَ مرة أخرى نهباً لأهواء هايد الجامحة. وفي هذه المرة اضطررتُ لمضاعفة الجرعة كي أستعيدَ نفسي؛ وواحسرتاه، بعد مضي ست ساعات، في أثناء جلوسي حزيناً أحدّقُ بالنار، عاودتني الآلامُ الطاعنة مما اقتضى أن أتجرّعَ الدواء من جديد. ولأقتضب أقوالي، مذاك اليوم فصاعداً بدا أنني من خلال مجهود عظيم كالبهلوان، وتحت التأثير الفوريّ للدواء فحسب، كنتُ قادراً على تلبُّسِ سيماء جيكل. وطوال ساعات الليل والنهار كانت تتولاّني ارتعادةُ فزعٍ تنذرني؛ وفوق كلِ شيء، كنتُ كلما غفوتُ أو نعست على مقعدي للحظةٍ فحسب، أجدني أستيقظُ على الدوام وأنا في صورة هايد. تحت وطأة هذا القدر الذي لم ينقطعْ عن إعاقتي، ومن خلال السُّهاد الذي حكمتُ به

الآن على نفسي، لا بل، آه، بعيداً عما تراءى لي ممكناً لدى البشر، غدوتُ، في شخصي أنا، مخلوقاً تآكلتْهُ الحمّى وجوّفتْه، جسده وذهنه كلاهما منهكّان وموهَنان، ولا تشغلهُ إلا فكرةٌ وحيدة: الذعرُ من ذاتيَ الأخرى. لكنني كلما غفوتُ، أو إذا تلاشى تأثير الدواء، استفقتُ دونما أيّ تغيير تقريباً (لأنّ طعنات التحول أضحت يوماً تلو آخر أقلَّ إيلاماً) فريسةً لوهمٍ تحفُّه صورُ الرعب: روحٌ تغلي بكراهياتٍ لا سببَ لها، وجسدٌ لا يبدو متمتّعاً بالقوة الكافية كي يضطلعَ بطاقات الحياة المتلظّية. كانت قوى هايد، فيما يبدو، تتنامى مع سُقام جيكل. والكراهية التي فصمَتْ بينهما الآن كانت، يقيناً، متساويةً من جهة كليهما. فبالنسبة إلى جيكل كانت هذه البغضاء تعبيراً عن غريزته الحيوية، فقد أبصرَ الآن التشوّه الكامل لذاك المخلوق الذي يشاطرهُ بعضاً من مظاهر الوعي، كما سيقاسمهُ ميراثه حتى الممات: وبمنأى عن هذه الأواصر المشتركة التي شكلّتْ بحدّ ذاتها أمضى أسبابِ ضيقه، خُيّل إليه أن هايد بكاملِ طاقتهِ التي تضجُّ بالحياة ليس مجرد شيء جهنميّ فحسب بل إنّه لا ينتمي إلى الطبيعة أيضاً. وكان هذا أفظع شيء: إنّ قذارةَ تلك البؤرة تلفظُ الأصوات والصيحات؛ إنّ الغبارَ السديميّ يومئ ويأثم؛ إنّ ما كان ميتاً وعديمَ الشكل سوف يغتصبُ عروش الحياة. وهذا الإحساس مرة أخرى بأن ذاك الوحش العصيّ على الترويض كان محبوكاً إليه أقربَ من زوجته، بل أقربَ من بؤبؤ العين، فرقد حبيساً في قفص جسده حيث يسمع المسخَ يدمدمُ ويستشعرهُ يكابد كي تُكْتبَ له الولادة؛ وفي كلّ ساعة من ساعات الضعف، وفي غياهبِ السبات، يغلبه المسخُ ويزيحُه إلى خارج الحياة. أمّا كراهيةُ هايد تجاه جيكل فكانت من صنفٍ آخر؛ فقد اقتادَهُ فزعهُ المستديم من المشنقة كي يُقدِمَ على انتحارٍ مؤقت، ويعودَ إلى حالته لا كشخصٍ كامل بل كجزءٍ ثانويّ يخضعُ لآخر سواه؛ لكنه كان يمقتُ هذا الاضطرار، يمقتُ القنوطَ الذي تهاوى إليه جيكل الآن، ولكم امتعضَ من النفور الذي كان يمحضهُ إياه. من هنا انبثقت أحابيله الشبيهة بأحابيل القردة كي أستحيلَ ألعوبةً بين يديه، فيخربش التجديفات بيدي أنا على صفحات كتبي، يحرقُ الرسائل ويحطّمُ صورة أبي؛ ولولا خشيتُه المَوتَ في الواقع لكان حقاً، ومنذ أمدٍ بعيد، قد جلبَ الدمار لنفسه ليورّطني في هذا الدمار. لكن عشقه للحياة يبعث على الإعجاب؛ سأسهبُ بعيداً: أنا الذي تتجمّدُ فرائصي وأقشعرُّ لمجرد التفكير به، حين أستحضرُ هوانَ هذا التعلُّق الشغوف بالحياة، وحين أعرفُ جسَامةَ خوفه من قدرتي على إفنائه إذا

انتحرتُ، أجدني في قرارة قلبي أشفقُ عليه.

لن تجدي إطالةُ هذا الوصف، والوقت يخذلني خذلاناً بغيضاً: لا أحدَ قاسى طغيانَ مثل هذه العذابات من قبل، ألا فليكفي هذا القول؛ ومع ذلك، فإن العادة - كلا، لم تخفّفْ شيئاً - قد أضفَتْ على هذه العذابات مسحةً من قسوة القلب ونوعاً من الرضا باليأس؛ و لربما استمرّت عقوبتي أعواماً لولا الكارثةُ الأخيرة التي حلّت بي الآن، وفصلَتني نهائياً عن وجهي وطبيعتي. ما بحوزتي من الملح الذي لم أجدّدهُ قط منذ تاريخ التجربة الأولى أخذ يتضاءل. أرسلتُ بول كي يجيئني بزادٍ طازج، وخلطتُ المزيج؛ وحصل التفاعلُ متبوعاً بالتحوّل اللونيّ الأول، أمّا التحول الثاني فلم يتمّ؛ شربتُ الجرعة فكانت بغيرِ تأثير. ستعلم من بول كيف نقّبتُ عبثاً أرجاءَ لندن كلّها؛ فأيقنتُ الآن إنّ كمية الملح الأولى لم تكن نقية، وإن تلك الشوائب المجهولة هي ما أمدّت الدواء بالتأثير.

ها قد انصرم حوالي أسبوع تقريباً، وأنا هذه الآونة أتمُّ هذا الاعتراف تحت تأثير البقايا الأخيرة للذرور القديمة. هكذا إذن، هي ذي آخر مرة - ما لم تُجترَحْ معجزةٌ - سيتسنّى لهنري جيكل أن يتملّى أفكاره الخاصة أو يلمحَ وجهه (يا للتحول الحزين يعتري تقاطيعه الآن!) في المرآة. ولا يتوجّبُ أن أرجئَ طويلاً إنهاءَ كتابتي؛ وإذا قُيضَ لروايتي حينئذ أنْ تسلمَ من التلف فسيكون السببُ حيطةً شديدة وحسنَ طالعٍ كبيراً قد اجتمعا معاً؛ وإذا أدركتني آلامُ التحوّل في غضون كتابتي هذه فسيمزّقها هايد إرباً؛ لكن لو مرّ قليلٌ من الوقت بعد تنحيتي إياها جانباً، فإنّ أنانيّتَهُ العجيبة وخضوعَهُ لنزوة اللحظة سينقذها على الأرجح، مرة أخرى، من بطشِ حنقه الشبيه بحنق القردة. ويقيناً أنّ القدر الذي يُطبق علينا كلينا راح يغيّره للتوّ ويحطّمه. بعد نصف ساعة من الآن، عندما سأتلبّس، مرة أخرى وإلى الأبد، تلك الشخصيةَ البغيضة، أعلمُ بأني سأجلسُ على مقعدي منتحباً ومرتعداً، أو سأواصلُ المسير في هذه الغرفة (ملاذي الأخير على هذه الأرض) رواحاً ومجيئاً، وأنا مستغرقٌ في شدّة الإصغاء المتيقّظ الذي شحذه الخوف، مُرهفاً السمعَ لكلّ نأمةٍ تتهدّدني. هل سيقضي هايد نحبه مشنوقاً؟ أم تُراه ستؤاتيه الجسارةُ التي سيفكُّ بها أسْرَ نفسه في اللحظة الأخيرة؟ الله هو العليم، لا أبالي؛ هي ذي ساعةُ موتي الحقّ، وما سيعقُبها شأنُ شخصٍ آخر سواي. ههنا، إذن، وأنا أضعُ القلم جانباً، وأتقدّمُ لأختمَ اعترافي، أسيرُ بحياة ذاك التعسِ هنري جيكل إلى نهايتها.

الهوامش

ص١٤ : **الخلنج والوزال** : صنفان من الحشائش الحراجية .

ص١٧ : **Juggernaut** : القوة الماحقة . استُخدمت هذه الكلمة في اللغة الإنكليزية منتصف القرن التاسع عشر ، منحولة عن السنسكريتية ، إذ يرمي عبدة كريشنا بأنفسهم تحت عجلات عربة هذه القوة عندما تستحوذهم النشوة الدينية .

ص١٨ : **الهاربيات** : هنّ ، في الميثولوجيا اليونانية ، مخلوقات برؤوس نسوة طاعنات في السن ولهنّ من النسور الجسومُ والأجنحة والمناقير والمخالب . كثيراً ما يقمن باختطاف الرجال إلى العالم السفلي .

ص٢٠ : ترجمةٌ حرفية . هذا تأويلها : كلما اتضحت غرابة أمرٍ ما . امتنعتُ عن الخوضِ فيه .

ص٢٤ : **ديمون وبيثياس** : فيلسوفان من المدرسة الفيثاغورية في القرن ٤ ق . م . عُرِف عنهما إخلاصهما للصداقة حتى صارا مضرباً للمثل .

ص٢٥ : ثمة تلاعب لفظي هنا يعسر نقله إلى العربية ، في إشارة إلى لعبة (الغميضة) .

ص٢٩ : **عفريت العلبة Jack-in-the-box** : دمية مربوطة إلى نابض مضغوط تثب نحوالناظر فور فتحه لغطاء العلبة .

ص٦٤ : **Rigor Mortis**.

ص٧٢ : **فيليبي** : مدينة قديمة في مقدونيا . كانت مسرحاً لمعركتين دارت رُحاهما سنة ٤٢ق . م ، وظفرَ فيهما أوكتافيوس ومارك أنطوني بهزيمة بروتوس وكاسيوس .

الفهرس

الكتاب للجميع

هكذا نريده؛ إيماناً بكونه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

وإذ شرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشرت خلال العقود الماضية وتعذر وصولها إلى قارئ اليوم، فإنما نهدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القارئ من الوصول إلى الينابيع الفكرية ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة بكلفة لا تثقل عليه.

كل الأطراف المشاركة في
هذا المشروع العربي متنازلة
عن حقوقها لصالح القارئ

ISBN:2-84305-835-X





سلسلة كتب شهرية
توزع مجاناً
مع الصحف التالية

الإتحاد	العراق
المدى	العراق
الأيام	البحرين
البيان	الإمارات
القبس	الكويت
السفير	لبنان
القاهرة	مصر

